العناصر النفسية
في سياسة العرب

اقرأ ٣٧

تصد[illegible] المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين [illegible]لون الجميل كتب
وعباس محمود العقا[illegible] وغيرهم



فاتحة القول

لو بعث في يومنا المؤرخون الذين دونوا تأريخ العرب في الماضي فنظروا في الذي كتبوه في هذا الباب ، لكان أسلوبهم في الحكم على الرجال والأخبار غير أسلوبهم الأول ، لا شك في أنهم كانوا لا يغفلون في هذا العصر العناصر النفسية في سياسة الأفراد والجماعات والأمم ، كانوا إذا تكلموا على رجل من رجال العرب تولى مقاليد الأمر والنهي في زمن من الأزمان جعلوا للعنصر النفسي في كلامهم مقاماً ، فإذا نجحت سياسة هذا الرجل في الناس أو إذا لم تنجح هذه السياسة فإنهم كانوا يبحثون عن العوامل التي أدت إلى النجاح أو الإخفاق ، وقد تكون هذه العوامل مرة اجتماعية ومرة اقتصادية أو غير ذلك ، وكيف كان الأمر فإن للعوامل النفسية في النجاح والإخفاق شأناً غير قليل .

لقد تؤثر في مصير الناس أمور شتى ، ولكن أعظم هذه

الأمور سلطاناً إنما هي العوامل النفسية ، ولو تذكرنا التعبير الذي ولدته هذه الحروب وهو «حرب الأعصاب» لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة في الحروب ، وقد كان له مثل هذه المنزلة في الحروب الماضية ، وعلى الرغم من هذا كله لا يزال علم النفس ضعيفاً ، فلا تزال الأمم يجهل بعضها أخلاق بعض ، كما جهل الأمريكان أخلاق اليابانيين في بدء الحرب، فبينما كان الأمريكان واليابانيون يتفاوضون قبل تحاربهم على وجه سلمي كان أسطول اليابانيين يضرب أسطول الأمريكان ، ولما اطلع الأمريكان على هذا الأمر قالوا : لم يخطر ببالنا غدر اليابانيين ! ولو كانوا عالمين بأخلاق جيرانهم لما قالوا هذا القول ، ولما غلطوا هذه الغلطة . فالسياسة مبنية على معرفة أخلاق الأفراد والجماعات والأمم ، وعلى معرفة الأحوال التي تتغير فيها هذه الأخلاق ، وهذه المعرفة النفسية إنما هي أقوى أساس في بنيان السياسة .

على أنه قد استطاع بعض الرجال في خلال التاريخ أن يعرفوا ما نسميه : روح الجماعات والأفراد ، وكانت هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم ، وقد طبق علم النفس في الحروب فكان له شأن عظيم ، وإذا كان المجال لا يتسع للإفاضة في هذا المعنى

فلا أقل من الإشارة إلى مثل واحد من أمثال تطبيق علم النفس في الحرب .

يقال فى بعض القلاع والحصون ، على ما ذكره الدكتور « غستاف لوبون » فى كتابه : تطور العالم ، أن قسما من جهاتها لا يمكن الاستيلاء عليه ، ولهذا الاعتبار يبقى هذا القسم ضعيف التحصين ، وقد استفاد بعض القواد من هذه الغلطات النفسية ، فرأوا أن يهجموا على القلاع والحصون التى هى من هذا النوع من الجهة التى قيل فيها لا يمكن الاستيلاء عليها ، فظفروا بما أرادوا ، وقد جربت هذه الطريقة فى الحرب الماضية من قبل الألمان ومن قبل الفرنسيين فنجحت ، وهى طريقة نفسية .

هذا عمل من أعمال علم النفس فى الحروب ، أما فى السياسة العامة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذى نقود به الجماعات والأفراد ونحول به عواطفهم ، وقد تمثل « لوبون » فى هذا الباب برواية من روايات « شكسبير » فمن طالع هذه الرواية استطاع أن يجد فيها دليلا واضحاً على ذلك فى الخطاب الذى ولده « شكسبير » على لسان « انطونيوس » لما استثار الجماهير أمام جثة قيصر .

لا شيء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب

من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا فى أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذى نراه فى شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادىء قد يصبح ثائراً ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدى إلى الإخفاق فى سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم فى بعض الأحيان .

لا أجد سبيلا إلى التوسع فى هذه المقدمة ، و إنما حسبى من كل ما ذكرت أن أشير على سبيل الإيجاز إلى أن السياسة المجردة من علم النفس إنما هى سياسة مفشفشة . بقى على أن أذكر نماذج من سياسات العرب التى نجحت أو التى لم تنجح ، وكان لنجاحها أو لإخفاقها عوامل متفاوتة ، أقف منها فى هذا الكتاب على العامل النفسي وحده ، دون الكلام على غيره .

لقد طالعت كتبا فى تاريخ العرب وأدبهم ، مكنت فى خلال هذه المطالعة أمر بأمور تدل على معرفة أصحابها بنفوس الناس ووقوفهم على طبائعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ، وأمور تدل على

الانحراف عن هذه المعرفة . وقد تبين لى أن أكثر العمال والأمراء والخلفاء الذين حسنت سياستهم للناس فحمد الناس أيامهم إنما هم الذين خالطوا نفوس الأفراد والجماعات والأمم ومازجوها فانكشفت لهم أسرارها ووقفوا على مواطن الضعف والقوة فيها ، أما الذين كان نصيبهم من هذه المعرفة النفسية قليلا فقد تعبوا فى سياستهم ووقعوا فى الورطات .

وغايتى فى هذا الكتاب أن أبسط ما خطر ببالى من الخواطر فى أثناء مطالعتى للأمور التى ذكرتها ، وليس اهتمامى بأن أكون مصيباً فى خواطرى على قدر اهتمامى بأن أمهد للقارئ الكريم سبيلا إلى فهم التاريخ من الناحية النفسية ، فإذا استطاع بعد نظره فى نماذج السياسات التى سأذكرها أن يتصفح التاريخ على النحو الذى تصفحته فقد بلغت ما أريد ، وسواء على بعد هذا أكان يشاركنى فى آرائى أم كان ينفرد بآرائه ، إنما المهم بعد اليوم أن نقرأ التاريخ من نواحى عناصره النفسية حتى يكون فهمنا له أتم ونظرنا فى فلسفته أكمل

سيّد العرب

قالت سيدتنا عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله ، صلّى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ودخل عمر ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عليّ ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان، فجلس له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد ، فقال : إن عثمان رجل حييّ ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليّ في حاجته .

*
* *

قد نمرّ بخبر مثل هذا الخبر ، فإمّا أنّا لا نحتفل به ، وإمّا أنّا لا نهتدى إلى جلالة قدره فى معرفة عبقرية سيدنا محمد ، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية ، وما أظن أن الذين كتبوا فى سيرة الرسول أهملوا الاهتمام بأشباه هذا الخبر ، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة ، فقد كان سيدنا محمد عالماً بنفوس جماعته وصحابته ، واقفاً على دقائق أخلاقهم ، محيطاً بغوامض أمزجتهم ، يعلم ما يغضب

له فلان من الصحابة ، وما يرضى به فلان ، ويعرف ما يستثير فلاناً وما يهدأ به فلان ، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له ، اللائقة به ، حتى أشربت القلوب محبته ، وانطوت على طاعته ، فلم ينفض أحد من حوله . وهذا منتهى الحذق فى سياسة الناس . وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الأثر فى سياسة الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها ، فما أكثر الذين ينفضون من حول زعيم من الزعماء لأنه فظ غليظ القلب ، وما أكثر الذين ينضمون إلى رئيس من الرؤساء لأنه رقيق القلب ، لطيف الحس ، ينزل الناس منازلهم ، ويخاطبهم على قدر مراتبهم ، وهذه حكمة يختص الله بها من يشاء ، ويحرمها من يشاء ، ولهذا الاختصاص ، ولهذا الحرمان ، أبلغ الأثر فى التوفيق فى سياسة الناس أو فى الإخفاق فيها .

*
* *

وقريب من هذا الخبر ما جاء فى بعض الأحاديث : فقد أذن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، للناس ، فكان آخر من دخل عليه أبا سفيان بن حرب ، فقال : يارسول الله ! لقد أذنت للناس

قبلى ، حتى ظننت أن حجارة الخندمة[١] ليؤذن لها قبلى ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما والله إنك والناس لكما قال الأول[٢] . كل الصيد فى جوف الفرا . أى كل شىء لهؤلاء من المنزلة ، فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم !

* * *

قد نظن أن هذا الخبر لا يدلنا إلا على منزلة أبى سفيان وحدها، ولكن فيه عنصراً آخر من عناصر سياسة الرسول . إنا نعلم أن أبا سفيان كان سيداً من سادات قريش فى الجاهلية ، كانت عنده العُقاب راية قريش ، و إذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، و إن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . وكان رأساً من رؤوس الأحزاب فى الإسلام ، إلا أن سيدنا محمداً لما قال له : كل الصيد فى جوف الفرا ، لم يقصد إلى الدلالة على مكانته وحدها ، و إنما

---

(١) جبل بمكة

(٢) يقول الجاحظ إن هذا الكلام : كل الصيد فى جوف الفرا ، لم يدع لأحد ولا ادعاه أحد غير النبى ، فقول صاحب الأغانى : لكما قال الأول ، يحتاج إلى تحقيق .

خرج بهذا الكلام من مقام حرج ، فإن قول أبى سفيان : حتى ظننت أن حجارة الخندمة ليؤذن لها قبلى، يصور أوضح تصوير ثورة أعصابه وهيجان نفسه وشدة غضبه . ومن يدرى ما كان يجر إليه هذا الكلام لو لم يسرع إلى التخفيف من هذه الثورة والغضب ، وقد رأى سيدنا محمد فى وجه أبى سفيان هذا كله ، وعرف أن من وراء هذه الثورة شيئاً لا تحمد عقباه ، فتلافى الأمر بمحاسن حكمته ولطائف فطنته ، فإن قوله : كل الصيد فى جوف الفرا ، قلب أبا سفيان من حال إلى حال فى أقل من رد النفس. فقد قلبه من الغضب إلى الرضى ، ومن الثورة إلى الهدوء ، ومن العبوس إلى الطلاقة . ومهما يقل الرسول لأبى سفيان بعد هذا الكلام فقد كان أبو سفيان مستعداً لقبوله ، لأن ثورته قد هدأت وغضبه قد سكن ، ولم ينصرف فكره إلا إلى هذه المنزلة التى رده إليها سيدنا محمد . وأسلوب مثل هذا الأسلوب فى معاملة الناس الخاصة ليس بالأمر الهين ، فليس بالأمر اليسير أن يدخل عليك رجل يستشيط غيظاً ويتلظى غضباً ، وترى هذا كله فى وجهه ، ثم تخرجه فى أقل من لمحة من حال إلى حال ، وذلك

بكلمة تهتدى إليها فى حينها وتضعها فى موضعها ، فتكون هذه الكلمه بمنزلة الثلج الذى يوضع على كبد محموم .

هذه غاية للمهارة في معرفة أسرار النفوس وعوامل الغضب والرضى والثورة والهدوء . و بمهارة مثل هذه المهارة نجحت سياسة سيدنا محمد فى جماعة فيهم أمثال أبى سفيان ، وما كان نجاحها بقليل !

*
* *

لقد تمثلت فى هذا الباب بأمرين بسيطين جداً ، ولكن لهذه الأمور البسيطة التى لا نبالى فى أثناء اطلاعنا عليها صلة عظيمة بنجاح صاحب مذهب من المذاهب أو معتقد من المعتقدات أو دين من الأديان ، عالماً بنفوس أهل البيئة التى ينشر فيها دعوته ، لاصقاً بأخلاقهم وطبائعهم ، واقفاً على مداخلهم ومخارجهم، فأخلق بدعوته أن لا تذهب عبثاً ، وما أظن أن أحداً بلغ من معرفة النفوس ما بلغه سيدنا محمد ، فقد نقل بيئة من عالم إلى عالم ، أدخل على عالمه الجديد أفكاراً وعواطف لا عهد لعالمه القديم بمثلها ، فليس بالأمر السهل أن ينشأ فى بيئة معروف أمرها فى العصبية والنخوة كلها سادات طبعوا على السيادة فيقبح أفعالهم ويذم آراءهم ،

ويسفه أحلامهم ويزيل دياناتهم ويبطل سننهم . ليس بالأمر السهل أن ينزع بالناس عما ألفوه من الديانات إلى دين حديث لم يألفوه ، فإن دياناتهم القديمة قد رسخت فى قلوبهم وتمكنت من ضمائرهم وصارت جزءاً من لحمهم ودمهم وروحهم ، ولكن سيدنا النبي خبر أخلاق رجاله العرب، وامتحن نفوسهم وطباعهم ، فسهلت له هذه الخبرة جليل عمله الذى أقدم عليه ، ومهدت له سبيلا إلى التوفيق فيه . ولقد اجتمعت له أسباب كثيرة هيأت له نجاح دعوته ، ولكن الذى يهمنا فى هذا المقام إنما هى الأسباب النفسية وحدها ، فقد تجلت قدرته على خبرة النفوس فى كثير من أعماله ، ولا أرى بى حاجة إلى ذكر هذه الأعمال كلها ، وحسبى ما أشرت إليه من اهتدائه إلى تحويل بيئة من ديانة إلى ديانة ، فهذا العمل وحده دليل قاطع على عظمة سياسته النفسية. لقد دخل الأمور من أبوابها ، ولو كان يجهل نفوس أهل البيئة التى عاش فيها لما استفاضت دعوته فى الآفاق . ولا يشبهه أحد من رجال العرب فى سياستهم النفسية مهما تكن قدرتهم على هذه السياسة .

لا شك فى أنه قد نجحت سياسة كثير من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم ، لبناء هذه السياسة على علم النفس ، ولكن نجاحهم

لا يكاد يكون شيئاً إذا قيس إلى نجاح سيدنا محمد فى خلق أمة .
ولو استقصينا فى كلام الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لوجدنا طائفة كبيرة من هذا الكلام متفجرة من معرفته بنفوس الناس. من هذا النوع قوله : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، أو قوله : المرء مع من أحب ، أو قوله : حبك الشيء يعمى ويصم ، أو قوله : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، او قوله: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، أو قوله : اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ، أو قوله : كادت الفاقة أن تكون كفراً ، أو قوله : زرغباً تزدد حباً . فلو عمدنا إلى كل كلمة من هذا الكلم ، أو إلى أمثالها من جوامع الرسول، ففككنا أجزاءها ، ودققنا فى عناصرها لتبين لنا أنها حجة بليغة على العلم بالنفوس والأخلاق والأمزجة والطبائع .

يوم السقيفة

للعناصر النفسية فى سياسة العرب مظاهر شتى ، مرة تظهر هذه العناصر فى معاملة الناس على مقادير أمزجتهم ومراتبهم ، على نحو ما سبقت الإشارة إليه فى الكلام على سيدنا محمد ، ومرة تظهر فى صرف الناس عن أمر غير محمود العواقب ، على نحو ما جرى فى يوم السقيفة .

لهذا اليوم شأن خاص فهو لا يشبه أى يوم من أيام الإسلام بعده ، فقد قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان شمل الإسلام مجتمعاً به ، فكاد هذا الشمل يتصدع بعد وفاته .

إلى من تصير الخلافة بعد النبي ؟ هذا ما لم يعلمه المسلمون ، فقد طمع فيها المهاجرون والأنصار ، واجتمعت بنو هاشم إلى على بن أبى طالب ومعهم الزبير بن العوام ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، هذه حلق مختلفة ، والله وحده يعلم الشر الذى كان

ينشأ عنها، ولكن شيئاً يسيراً من معرفة نفوس الناس قد دفع الشر عن المسلمين.

أول من طمع فى الخلافة إنما هم الأنصار، أوسهم وخزرجهم. لما قبض النبي اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، وهو من الخزرج، وفى نيتهم توليته أمر المسلمين بعد وفاة سيدنا محمد، وكان مريضاً لا يستطيع أن يُسمع الناس كلامه، فكان يتكلم فيتلقى ابنه قيس قوله منه، فيحفظه ويرفع صوته لكى يسمعه قومه. ومن المنتظر فى مقام مثل هذا المقام أن يذكر للأنصار سابقتهم فى الدين وفضيلتهم فى الإسلام، وأن لا يرى لقبيلة من العرب مثل هذه السابقة وهذه الفضيلة، فبأسيافهم دانت العرب للرسول، فهم أحق الناس وأولاهم بالخلافة، ولقد كان لهذا الكلام أثر بليغ فى الأنصار، حتى قالوا له بعد أن سمعوه: وفقت فى الرأى، وأصبت فى القول!

ولكن المهاجرين لم يسرهم اجتماع الأنصار وخطبة سعد بن عبادة فيهم، فلما تناهى خبر هذا الاجتماع إلى أبى بكر فزع أشد الفزع، فقام ومعه عمر بن الخطاب، فخرجا مسرعين إلى سقيفة بنى ساعدة، فدخلوا السقيفة ومعهم أبو عبيدة بن الجراح

فتولى الكلام أبو بكر ، و بين فضل المهاجرين فى الإسلام فهم أول الناس إسلاماً ، والناس لهم فيه تبع ، وهم عشيرة رسول الله ، وهم أوسط العرب أنساباً ، ولكنه مع هذا لم ينكر فضل الأنصار ، آوى إليهم رسول الله فنصروه ، فهم وزراء المهاجرين فى الدين ، و إخوانهم فى كتاب الله ، وشركاؤهم فى السراء والضراء .

ولقد تشاحّ المهاجرون والأنصار على الخلافة ، قريش من جهة ، والخزرج والأوس من جهة ثانية ، فكلما فرغ فريق من بيان حجته قام فريق آخر وأضعف هذه الحجة ، وكان عمر بن الخطاب يؤيد أبا بكر فى كلامه ، حتى كاد الأمر يفضى بالمهاجرين والأنصار إلى التهديد بتحطيم الآناف بالسيوف !

ومن محاسن حظ المهاجرين فى حال مثل هذه الحال ، الفتنة فيها قائمة ، والقلوب هائجة مائجة ، والأعصاب ثائرة ، أن يدب التحاسد بين الأنصار ، فيقوم رجل منهم وهو بشير بن سعد من سادات الخزرج ، فيرى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادة ، فيحسد سعداً على ذلك ، فيدعو الأنصار إلى التخلى عن الخلافة لأن النبى من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولى

(بشير بن سعد)

سلطانه ، و يسبق قريشاً إلى مبايعة أبي بكر ، فيضعف بعمله هذا حال الأنصار ، حتى قام الأنصار فبايعوا أبا بكر .

لا شك في أن لبشير بن سعد فضلا عظيما في خلافة أبي بكر . ولكن له فضلا أعظم في دفع فتنة عن المسلمين لو لم تدفع لكان خطبها جليلا . وهذا الفضل ناشيء عن إحاطة علمه بنفوس القوم .

لما بايع المهاجرون والأنصار أبا بكر تخلف سعد بن عبادة عن البيعة ، فهو لا يبايع حتى يرمى أبا بكر وجماعته بكل سهم في كنانته ، ويخضب منهم سنانه ورمحه ، ويضربهم بسيفه ، و يقاتلهم بمن معه من أهله وعشيرته ، وإن كلاماً مثل هذا الكلام لا يسكت عنه عمر بن الخطاب ، فأوغر صدر أبي بكر عليه وقال له : لا تدعه حتى يبايعك ، فلو عمل أبو بكر بكلام عمر لوقع المسلمون في شر عظيم ، وقد نبه على هذا الشر بشير بن سعد فقال للمهاجرين : ليس يبايع سعد حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه وأهل بيته وعشيرته ، ولن تقتلوهم حتى تقتل الأوس ، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم فاتركوه، فليس تركه بضارّكم ، و إنما هو رجل واحد ، فتركوه وقبلوا مشورته .

بهذا الكلام أُغلق باب الفتنة . وما ذكرت ما ذكرت من تلخيص أخبار السقيفة إلا لأصل إلى هذا الكلام ، ففيه دلالة عظيمة على علم النفس ، فيه السياسة المبنية على أصول نفسية ، فلو قتل سعد بن عبادة وهبت الخزرج والأوس للأخذ بثأره ، فكيف تكون عاقبة المسلمين ، والإسلام لا يزال فى أوله ؟ كيف يكون أثر أول اقتتال فى الإسلام على أول خلافة فيه ؟ فبرأى مثل رأى بشير بن سعد سلم المسلمون من شر هذا الاقتتال ، ولم يقذف بشير بن سعد بهذا الرأى عبثاً ، فهو يعرف عادات العرب عامّة ، وقومه خاصة ، فى الثأر . ولكنى لا أرى فى هذه المعرفة فضلا كبيراً ، فإن مثل هذه العادات معروفة فى العرب ، إنما الفضل كل الفضل فى تحذيره المهاجرين قتل رجل من الأنصار تخلف عن البيعة وليس فى تخلفه شىء من الضرر ، لأن بيعة المسلمين قد تمت ، والأمر قد استقام ، فاجتناب أمر صغير مثل هذا الأمر نجى المسلمين من شرٍّ عظيم ، وهذا الاجتناب من وحى المعرفة النفسية ، فبطل يوم السقيفة فى الحقيقة إنما هو بشير بن سعد !

أهل الرِدّة

، قد تكون العوامل النفسية فى بعض الأوقات سبباً فى إهمال أمر من الأمور ، وقد تكون فى أوقات ثانية سبباً فى الاهتمام بهذا الأمر ، ففى أخبار السقيفة التى تقدم شرحها كان السكوت عن سعد بن عبادة الذى تخلف عن بيعة أبى بكر حكمة سياسية مبنية على معرفة نفسية ، ولم يكن السكوت عن أهل الردة شبيهاً بالسكوت عن ابن عبادة. وهذ خلاصة الردة :

لما تمت البيعـة لأبى بكر واستقام له الأمر اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب عن الإسلام ، فنصب أبو بكر لهم الحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا : نصلى ولا نؤدى الزكاة ، فقـال الناس : أقبل منهم ياخليفة رسول الله ، فإن العهد حديث ، والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون ، لا طاقة لنا بالعرب ، مع أنا قد سمعنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . فقال أبو بكر :

هذا بن حقها ، لا بد من القتال ، فقال الناس لعمر : اخل به فكلمه ، لعله يرجع عن رأيه هذا ، فيقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة ، فخلا به عمر نهاره أجمع ، فقال: والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكين ، وقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ يقول : أمرت أن أقاتل على ثلاث، شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فوالله الذى لا إله إلا هو لا أقصر دونهن . فضرب منهم من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس فى الإسلام طوعاً وكرهاً ، وحمدوا رأيه وعرفوا فضله . قال أبو رجاء العطاردى : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبى بكر ويقول : أنا فداؤك ، لولا أنت لهلكنا ، فحمد له رأيه فى قتال أهل الردة .

***

هذا ما رواه ابن قتيبة مما له صلة بأخبار أهل الردة ، وقد كان يجب علىّ التبسط فى هذه الأخبار لعظم قدر الحادث الذى حدث فى الإسلام ، ولكن هذا التبسط من خصائص التأريخ ، ولست مؤرخاً فى كتابى هذا . لقد اطلعت على ما كتبه بعض المؤرخين

فى أخبار أهل الردة ، فلم يزيدوا فى كتابهم على وصف أبى بكر بأنه صاحب عزم ، ولكن فى هذا الأمر الجسيم شيئاً أكثر من العزم . ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة كلها : فى نجد واليمامة واليمن وعمان وتهامة اليمن والبحرين ومشارف الشام وغيرها ، وعهد الإسلام حديث على ما قالوا لأبى بكر ، والمسلمون فى تلك الأيام عددهم قليل ، لا طاقة لهم بقتال أهل الردة ، فلو سمع أبو بكر نصيحة الذين نصحوه ولم يقاتل أهل الردة أو قبل منهم الصلاة وأغضى على الزكاة لتهاون العرب بالإسلام ، ورجعوا إلى دياناتهم القديمة ، ودفن الإسلام وهو فى مهده ، لأنه لم يتمكن بعد من دخول القلوب والتبحبح فيها ، فالقلوب عادة شديدة الشوق إلى ما ألفته فى ماضيها ، يصعب عليها القروض على ألفة الأمور الحديثة ، وقد عرف أبو بكر هذه الأسرار النفسية ، وعرف أنه إذا تهاون بأهل الردة ذهب الإسلام والمسلمون ، فوقع فى أمرين : إما قبول نصيحة المسلمين وفيها ضعضعة أركان الإسلام ونسخ هيبته فى القلوب ، وإما مقاتلة أهل الردة وعددهم كثير ، والمسلمون قليلون ، فاختار الأمر الثانى واستعان بالله ، فخير له أن يقاتل فى تأييد الإسلام وهو يرجو النصر من أن يحتمل بعض

ضعضعته فتعم الردة المسلمين كلهم . فكان الخير فى الذى هم به ، على الرغم من المخاطرة التى خاطرها . ولقد استعمل أقصى الحكمة فى مقاتلة أهل الردة كما يتبين ذلك من الكتاب الذى كتبه إليهم ، فقد أمر أمراء الجيش بالإحسان و بأن لا يقاتلوا أحداً ولا يقتلوه حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب لهم وأقر وكف وعمل صالحاً قبلوا منه ومن أبى أمرهم أن يقاتلوه وأن لا يبقوا على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوهم بالنار و يقتلوهم كل قتلة ، وأن يسبوا النساء والذرارى ، وأن لا يقبلوا من أحد إلا الإسلام . فعلى هذا الوجه ترك للمرتدين سبيلا إلى إعمال الفكرة والروية ، ولم يفاجئهم بالقتال مفاجأة ، فلولا رأى أبى بكر لذهب الإسلام وهو فى صدر أمره ، والفصل فى هذا الرأى لشدة المعرفة بالنفوس والكشف عما تنطوى عليه .

وكثيراً ما كان عقلاء المسلمين يخافون الردة و يحسبون لها حسابها . لما قتل أبو عبيدة الثقفى فى حرب الفرس شق ذلك على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ، فخطب عمر فى الناس وحثهم على الجهاد وأمرهم بالتأهب لأرض العراق ، وعسكر عمر وهو يريد الشخوص ، ودعا الناس فاستشارهم ، فأشاروا عليه بالمسير ، ثم قال

لعلىّ : ما ترى يا أبا الحسن ! أسير أم أبعث ؟ قال : سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له ، فخرج من عنده ، فدعا العباس فى جلّ مشيخة قريش وشاورهم ، فقالوا : أقم وابعث غيرك ، ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة ، وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره ، فقال عبد الرحمن : فديت بأبى وأمى ، أقم وابعث ، فإن انهزم جيشك ، فليس ذلك كهزيمتك ، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً ، ثم خرج فدخل عثمان عليه ، فقال له : يا أبا عبدالله ! أشر علىّ أسير أم أقيم ؟ فقال عثمان : أقم ياأمير المؤمنين ، وابعث بالجيوش فإنه لا آمن أن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض .

هذا خبر نقلته عن المسعودى مع شىء يسير من حذف ما لا صلة له بالموضوع الذى أخوض فيه ، وجوهر الأمر فى هذا الخبر الاستشارات التى استشارها عمر ، وقد كان فى أجوبة المستشارين وجه الصواب ، فلم ينحرف علىٌ عن الحق لما قال له : سر بنفسك فإنه أهيب بالعدو وأرهب له ، ولم ينحرف العباس عن هذا الحق لما قال له : أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة ،

ولكن بعض شيوخ قريش نظروا إلى الأمر من وجه آخر، وربما كان نظرهم أبعد أفقاً، فقد كان لهم عبرة بالأحداث التي حدثت بعد وفاة النبي، فخافوا أن تحدث هذه الأحداث مرة ثانية، فقد ارتدت العرب بعد استخلاف أبي بكر بعشرة أيام، فخافوا أن ترتد العرب إذا قتل عمر في حرب الفرس، خاف عبد الرحمن بن عوف، إذا قتل عمر أن يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً. وخاف عثمان بن عفان إذا أتى على عمر آت أن ترجع العرب عن الإسلام. هذه سياسة موافقة للقواعد النفسية الموافقة كلها. لم يلق عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان بما ألقيا به من الآراء عبثاً، وإنما أدبتهما تجربة الماضي فانتفعا بهذه التجربة. فلو قتل عمر في حرب الفرس لارتد العرب مرة ثانية، وربما كانت حرب أهل الردة في هذه المرة أشد على المسلمين من الأولى، فقد يهون أمر الإسلام وتكثر الجرأة على الرجوع عنه، لأن الإسلام حديث النشأة لم يأت عليه من الزمن ما يكفي لتأصله في القلوب. وقد ذكر المسعودي في تاريخه أن علي بن أبي طالب قد تسلل أصحابه في بعض حروبه ولحقوا بأوطانهم ومضى الحرث بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية.

فإذا كان لأبى بكر فضل عظيم فى تثبيت الإسلام بعد حرب الردة ، فإن لعبد الرحمن بن عوف ولعثمان بن عفان ولبعض شيوخ قريش مثل هذا الفضلِ فى تحذيرهم عمر السير إلى العدو بنفسه خوفاً من أن يقتل فترجع العرب عن الإسلام . ولم تخرج آراؤهم عن الآفاق النفسية ، إنها صادرة عن خبرة تامة بنفوس العرب ، مبنية على التجارب .

الشورى

ما هي مظاهر العناصر النفسية فى أمر الشورى ؟

مرض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مرضه الذى قبض
فيه فأمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فلم يزل أبو بكر يصلى بالناس
حتى اليوم الذى مات فيه الرسول ، ثم كان من أمر السقيفة
ما كان ، وجرى فيها من تنازع المهاجرين والأنصار ما جرى
حتى تمت البيعة لأبى بكر .

ثم مرض أبو بكر المرض الذى مات فيه ، فاستخلف على
المسلمين عمر بن الخطاب .

ثم طعن عمر فدخل المهاجرون عليه وهو فى البيت من جراحه
وسألوه أن يستخلف عليهم ، فكيف كانت سبيله فى هذا
الاستخلاف ؟

لم يخلُ استخلاف عمر على المسلمين من كثير من الحيرة
والتردد ، فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين حياً أو ميتاً ، ثم رأى أنه

إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه ، يعنى أبا بكر ،
و إذا ترك الأمر فقد تركه من هو خير منه ، يعنى النبى ، ثم رأى
أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفه وولاه ، ولو أدرك
معاذ بن جبل لاستخلفه ، ولو أدرك خالد بن الوليد لولاه ، وفى هذا
كله كثير من الحيرة . ثم رأى فى على بطالة وفكاهة، وفى طلحة
زهواً ونخوة، وفى عبد الرحمن بن عوف صلاحاً مع ضعف ، ورأى
أن سعداً صاحب مقنب وقتال ، لا يقوم بقرية لو حُمِّل أمرها ،
ورأى أن الزبير لقيس ، مؤمن الرضى ، كافر الغضب ، شحيح ،
ورأى أن عثمان لو ولى الخلافة لحمل قومه بنى أبى معيط على رقاب
الناس ، ثم سأل أن يدلوه على برٍ تقى يوليه ، ثم صحّ عزمه
على أن يستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ،
فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين ،
وهم : على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد
بن أبى وقاص . ومنهم من حدث أن سعداً لم يكن فى الشورى؟
أما عبدالله بن عمر فقد أدخله أبوه فيها على أنه خارج من الخلافة
وليس له إلا الاختيار .

كل هذا يدل على الارتباك ، ولقد كانت هذه الطريقة

سبيلاً إلى المخاصمة ، فقد تشلح أصحاب الشورى على الخلافة وأخروا إبرام الأمر ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة ، حتى إن أبا طلحة بكى وقال : كنت أظن بهم خلاف هذا الحرص ، إنما كنت أخاف أن يتدافعوها ، فلقد طال تناجى القوم وتناظرهم ، ودفع كل واحد منهم صاحبه عنها وكاد يؤدى هذا الأمر إلى الفتنة، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفتهم و إمامهم ، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم .

ولسنا ندرى ما الذى حمل سيدنا عمر على الوقوع فى هذا الارتباك ، وقد كان قادراً على أن يستخلف أصلح القوم ، وهو يعرفهم واحداً واحداً ، و يعرف عيوبهم وفضائلهم ، ولكنه عدل عن ذلك . و إذا لجأت إلى الحرية فى الكلام قلت : خاف التبعة ففر منها ، فإن جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالف للقواعد النفسية فى السياسية ، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى وكانوا فى غنى عنها لو حزم عمر .

لاشك فى أن انتخاب الرعية لراعيها أو الأمة لرجال الحكم

فيها على تعبير هذا العصر إنما هو أرفع ما وصل اليه عقل البشر من أشكال الحكم الدمقراطى ، ولكن هذا النوع من الحكم لم يتكامل بعدُ فى أيامنا هذه ، فجدير به أن يكون فى أيام عمر أقل تكاملا ، ففكرة عمر فى أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية ، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة ، ومثله لا يكاد يفوته شىء من أسرار السياسة النفسية ، فقد ذكروا أن زياداً أوفد ابن حصين إلى معاوية فأقام عنده ما أقام ثم إن معاوية بعث اليه ليلا فخلا به ، فقال له : يا ابن حصين ! قد بلغنى أن عندك ذهناً وعقلا ، فأخبرنى عن شىء أسألك عنه ، قال : سلنى عما بدا لك ، قال أخبرنى ما الذى شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم ، قال : نعم ، قتل الناس عثمان ، قال : ماصنعت شيئاً ، قال : فمسير على إليك وقتاله إياك ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين ، قال : فأنا أخبرك ، إنه لم يشتت بين المسلمين ولافرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمر الله به ثم قبضه الله اليه وقدم أبا بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر، فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف .

هذا هو الرأى المختمر ، فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها ، ولا أرانى أخرج عن الموضوع إذا قلت إن مسئلة الحياة النيابية فى عصرنا هذا ، وهى شبيهة بأمر الشورى فى عصر عمر بن الخطاب ، لاتزال معضلة ، لم يتكامل أمرها بعد ، فقد ثار على النظام النيابى فى أوربة بعض المفكرين ، ورأوا أن أصل الأمر فى انهيار طائفة من أمم الغرب إنما هو النظام النيابى نفسه ، ولا نزال فى الشرق نعانى مفاسد هذا النظام الذى لم يتكامل ، أفلا نجد أن الحياة النيابية فى بلادنا تحرم هذه البلاد فى كثير من الأحيان الانتفاع بعبقرية غير قليل من العلماء والفلاسفة

والأدباء ومن هم فى هذه الطبقات المستنيرة ، فلا يشتركون فى حكم الأمة ولا يرجع إلى رأيهم فى سياستها، وذلك لأنهم بعيدون عن الميادين الانتخابية فلا يخوضون مسالكها الوعرة، إما من باب الحرص على كراماتهم لأنهم يترفعون عن هذه الأحقاد الحزبية التى تتأجج نيرانها فى أثناء الانتخابات، وإما من باب النفرة من المظاهر الخداعة ، فإن علمهم المبنى على الحقيقة وحدها قد نزههم عن استعمال الأساليب المبنية على شىء آخر غير الحقيقة مما يستعمل فى غضون الانتخابات ، فإن اللجوء إلى ألفاظ مشهورة فى الحياة النيابية يلجأ إليها أصحابها فى الميادين الانتخابية للظفر بنياباتهم ، ثم تنقضى معارك الانتخاب و إذا بهذه الألفاظ تتلاشى ولا حقيقة من ورائها — أقول إن اللجوء إليها مما يترفع عنه العلماء والفلاسفة والأدباء فلا يرفع لهم صوت فى المجالس النيابية ولا يكون لآرائهم السديدة تأثير .

فإذا كان أمر الشورى فى أيامنا هذه لايزال مفتقراً إلى كثير من الإصلاح حتى يكون كاملا نافعاً فكيف كان هذا الأمر فى أيام عمر بن الخطاب ؟ فقد أصاب معاوية كل الإصابة لما قال إن الشورى هى التى شتت بين المسلمين وفرقت أهواءهم ، وهى

التى لاتزال تشتت بين بلادنا وتفرق أهواء أهل البلاد . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الشورى إنما هى شبيهة بالحياة النيابية فى هذا العصر، وأظن أن القارئ يدرك أنى لا أطلق هذا القول إطلاقا ،فإن الفرق بين ستة رجال يجتمعون لينتخبوا من بينهم خليفة ، و بين أمة تجتمع بحذافيرها لتنتخب نوابا ورجال حكومة واضح جداً ، إنه فرق كبير ، ولكنى لجأت إلى هذه المقارنة لأن المحاذير فى الأمرين متقاربة ، فالشورى فى القديم كانت غلطة نفسية فنشأ عنها شتات المسلمين وفرقة أهوائهم ، والحياة النيابية فى الحديث ينشأ عنها فى بعض الأمم سوء التصرف فى السياسة والإدارة والخروج على القوانين والأحقاد وغير ذلك مما لامجال إلى التبسط فيه ، على أن قليلا من تعديل النظام النيابى فى فريق من الشعوب يعود بهذا النظام إلى محاسن عواقبه فى الأمم .

على بن أبى طالب

إذا ثبتت الحاجة إلى معرفة الأمور النفسية فى سياسة أحد من العمال والخلفاء فما ثبتت هذه الحاجة مقدار ثبوتها فى سياسة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، رأى لنفسه حقاً فى الخلافة ، فصرح بهذا الحق ولم يجمجم ، سأله قوم عن أبى بكر وعمر وعثمان ما يقول فيهم ، فلم يكتم أسرار نفسه ، فقد مضى رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فتنازع المسلمون الأمر بعده ، فأقسم علىّ بالله أنه ما كان يلقى فى روعه ولا يخطر على باله أن العرب تعدل بهذا الأمر عنه ، فما راعه إلا إقبال الناس على أبى بكر ، وإجفالهم إليه ، فأمسك يده ، ورأى أنه أحق بمقام محمد فى الناس ممن تولى الأمور عليه ، فلبث بذلك ما شاء الله حتى رأى راجعة من الناس رجعت عن الإسلام يدعون إلى محو دين محمد وملة إبراهيم عليهما السلام ، فخشى إن لم ينصر الإسلام وأهله أن يرى فى الإسلام ثلماً وهدماً تكون المصيبة به عليه أعظم من فوت ولاية أمر الناس

التى هى متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب ، فمشى عند ذلك إلى أبى بكر فبايعه ونهض معه فى تلك الأحداث حتى زهق الباطل وكانت كلمة الله هى العليا ، فتولى أبو بكر تلك الأمور ، فيسر وسدد وقارب واقتصد ، فصحبه مناصحاً وأطاعه فيما أطاع الله فيه مجاهدا .

هذا شىء من كلام كتبه على إلى أهل العراق ، ووددت لو يتسع المقام لذكر الكلام كله ، على أن فى الاشارة إلى هذا القدر منه دليلا واضحاً على تصريحه بحقه فى الخلافة ، وفى بقية الكلام دليل أوضح ، فإن الذى يقول فى طلب الخلافة لقوم من الناس عابوه بحرصه عليها : أنتم أحرص ! أما أنا إذ طلبت ميراث ابن أبى وحقه وأنتم دخلتم بينى وبينه ، وتصرفون وجهى دونه ، اللهم إنى أستعين بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمى وصغروا عظيم منزلتى وفضلى واجتمعوا على منازعتى حقاً كنت أولى به منهم ثم قالوا : اصبر كمداً وعش متأسفاً ، إن الذى يقول مثل هذا القول لا يعرف فى السياسة إلا الصراحة ، فليست السياسة فى نظره لطفاً فى حيلة ، أو رفقاً فى مدخل ومخرج ، ومن كان هذا شأنه فيها ، فمقامه فيها حرج ، لم تكن معرفته

بالأمور النفسية على قدر صراحته ، فإذا لم تنجح سياسته النجاح كله ، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيراً من حسن الموارد والمصادر ، فليس كل صاحب حق فى هذه الدنيا بواصل إلى حقه على مثل هذه السبيل .

من بعض كلامه : لايزيدنى كثرة الناس حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى محق فهذا كلام رجل لايبالى بأساليب السياسة فى طلب الحق ، ولايهتم بروح الجماهير ، فكثرة الناس فى رأيه وقلتهم سواء ، وليس الأمر كذلك فى قواعد السياسة ، فإن للكثرة فيها شأناً ، ومن يقبل عليه الرجال فيها غير من يدبرون عنه ، ففى معظم أحوالها كثرة الناس حول رئيس من رؤسائها عزة ، وقلتهم وحشة ، وهذه أمور يصعب على سيدنا على الإعتراف بها حتى قلت هذه الصعوبة الناس حوله .

وكما صعب عليه إدراك أسرار السياسة من حيث الكثرة والقلة فيها ، فقد صعب عليه إدراك هذه الأسرار من حيث عمل المال فى الجماعات ، قام رجال من أصحابه فقالوا له : يا أمير المؤمنين ! أعط هؤلاء هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه ، فإذا

استقام لك ماتريد عدت إلى أحسن مما كنت عليه من القسم ، فقال على : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام ، فوالله لا أفعل ذلك ما لاح فى السماء نجم !

لم يدر نضّر الله عظامه ، أن الناس عامّة إنما همّهم حُطام هذه الدنيا ، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف دارت مصالحهم ومنافعهم ، فلم يعاملهم كما يجب أن يعاملهم رجل السياسة وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق ، فكان من عواقب هذه المعاملة شكواه منهم فى كل كلام وفى كل خطبة . وعلى كل حال إذا قل نصيبه من معرفة نفوس البشر على حقائقها ومن قرنه السياسة بهذه المعرفة فلم يقل نصيبه من غير هذه الفضائل

على أنا نظلم علياً إذا جردناه تجريداً من علم النفس ، ولا بأس بأن أذكر بعض أمور تدل على خبرة بالنفوس .

لما رفعت المصاحف على الرماح فى وقعة صفين ، وسأبين هذه الخديعة فى الفصل الآتى ، رفعها أهل الشام برأى عمرو بن العاص حتى يخففوا عنهم من شدة القتال ، وقال أهل العراق لعلى : قد أعطاك معاوية الحق ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ، قال على : ويحكم ! مارفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون

بها ، ومارفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة ...

فهذا كلام رجل لا يجهل غش الناس وخديعتهم . ومما يدل على ذلك تأنيبه لأهل العراق بعد أن بلغه من أمر أبى موسى وعمرو ما بلغه ، فقد قال لهم : إنى كنت تقدمت إليكم فى هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبيتم إلاَّ عصيانى ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علىَّ ! والله إنى لأعرف من حملكم على خلاف والترك لأمرى ولو أشاء أخذه لفعلت ولكن الله من ورائه .

أجل ، إنا نظلم عليا إذا جردناه من معرفة الناس و بواطنهم ، وهذا أمر آخر يدل على هذه المعرفة ، لما تعاهد ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، مما هو معروف فى التأريخ، دسَّ معاوية أناساً إلى الكوفة يشيعون موته ، وأكثر الناس القول فى ذلك حتى بلغ علياً فقال فى مجلسه : قد أكثرتم من نعى معاوية ، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى، و إنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى ، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم و يتيقن ما عندى فيه ، وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان .

فليس بقليل أن يهتدى على إلى معرفة هذه النواحى الغامضة

في سياسة عدوه ، إلا أنه كان قليل الحظ من الاستفادة من المعرفة النفسية في السياسة . ذكر ابن قتيبة أن الزبير وطلحة أتيا علياً بعد فراغ البيعة فقالا . هل تدرى على م بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال علي : نعم ، على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر ، قال علي : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد ، وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق ، وطلحة في ولاية اليمن ، فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئاً أظهرا الشكاة . فتكلم الزبير في ملإ من قريش ، فقال : هذا جزاؤنا من علي ، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفى الأمر ، فلما نال ما أراد جعل دوننا غيرنا ، فقال طلحة : ما اللوم إنا كنا ثلاثة من أهل الشورى ، كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا ، فانتهى قولهما إلى علي ، فدعا عبد الله بن عباس ، وكان استوزره ، فقال له : بلغك قول هذين الرجلين ، قال : نعم ، بلغني قولهما ، قال : فما ترى : قال : أرى أنهما أحبا الولاية ، فولّ البصرة الزبير وولّ

طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك على ثم قال : ويحك ! إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لا ستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .

قد يحار الفكر فى أقوال الرجلين : على وابن عباس ، أما عبد الله بن عباس فلا شك فى أنه كان من الناصحين لعلى ، فإن فى توليتهما الكوفة والبصرة ما يكفى علياً شرهما ، والدليل على ذلك أنهما لما قطعا أملهما من الولاية توجها نحو البصرة وأظهرا الخلاف ونكثا البيعة وتبعهما على ذلك خلق كثير ، وأما على فقد كان على حق في سوء ظنه بهما فإنهما إذا ملكا رقاب الناس طمعا فى شىء أبعد من ذلك ، ولكنه كان يستطيع أن ينجو منهما بتوليتهما بلاداً ليس لهما فيها طمع فى استمالة الناس

ومن هذا الشكل مارواه المسعودى: فقد أتى المغيرة بن شعبة علياً فقال له : إن حق الطاعة النصيحة وإن الرأى اليوم تحوز به ما فى غد ، وإن التضارع اليوم تضيع به ما فى غد ، أقرر معاوية

على عمله ، وأقر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت ، قال : حتى أنظر ، فخرج إليه وعاد من الغد ، فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبته ، وإنما الرأى أن تعالجهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ، ويستقل أمرك ، ثم خرج ، فتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل ، فلما انتهى إلى على قال : رأيت المغيرة خارجاً من عندك ، ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بكيت وكيت وجاءنى اليوم بذيت وذيت ، فقال : أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك

لا شك فى أن المغيرة قد نصح علياً فى المرة الأولى ، وقد شعر بهذا النصح ابن عباس ، ومن ثم تردد على فى السماع من المغيرة لما كان ينبغى له أن يتردد فى السماع من ابن عباس ، فإن إقرار العمال على أعمالهم فى بدء الأمر ريثما يتوثق على من سلطانه تدبير إدارى على مصطلح هذا العصر ، وخاصة أن علياً حديث العهد بالخلافة ، وخلافته محفوفة بالمكاره ، فلو أقر العمال على أعمالهم لاطمأنت قلوبهم بعض الاطمئنان ، فلا تحدثهم هذه القلوب بشىء من الثورة عليه ، حتى إذا تكاملت هذه الطمأنينة واشتد

سلطان علىّ فعل ما أراد ، ولم يخطىء المغيرة فإنه أحد دهاة العرب، فهو يعرف مقادير الرجال، ونصيحته لعلى دليل قاطع على هذه المعرفة ، وقد أيد هذا النصح رأى ابن عباس ، ولكن علياً تهاون بآرائهما ، فوقع ما وقع مما لا مجال للخوض فيه ، وإنما الذى وقع كان نتيجة غلطات نفسية غلطها سيدنا على .

خديعة المصاحف

بلغ من معرفة الأمور النفسية فى السياسة أن هذه المعرفة كانت فى بعض الأحيان سبباً فى إنقاذ من هزيمة فيها ضياع الملك كما وقع فى حرب صفين ، إنى فى غنى عن ذكر تفاصيل هذه الحرب ، ولكن الذى لا أجد لى مندوحة عن ذكره إنما هو الأمر الأخير فيها .

أشار ابن قتيبة إلى أن أهل العسكرين ، عسكر على وعسكر معاوية ، باتوا بشدة من الألم ، ونادى على أصحابه ، فأصبحوا على راياتهم ومصافهم ، فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال قال لعمرو بن العاص : يا عمرو ! ألم تزعم أنك ما وقعت فى أمر قط إلا وخرجت منه ، قال : بلى ، قال أفلا تخرج مما ترى ؟ قال ، والله لأدعونهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعا ، إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكه اختلفوا ، قال معاوية : وما ذاك ؟ قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم

تدعوهم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته ، ولئن رده ليكفرنه أصحابه ، فدعا معاوية بالمصحف ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند ، فنشره بين الصفين ، ثم نادى : الله الله ! فى دمائنا ودمائكم لبقية ، بيننا وبينكم كتاب الله ، فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى على فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ، ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف ، ثم تلا : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ثم نادى : من لفارس ! من للروم ! وفى رواية المسعودى : من لثغور الشام بعد أهل الشام ! ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ! ومن لجهاد الروم ! ومن للترك ! ومن للكفار ! ورفع فى معسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، فقال الأشعث لعلى : والله لا نأتى هذه أبداً ونرضى معك أو نقاتل معك ، وتابعه أشراف أهل اليمن وركنوا إلى الصلح وكرهوا القتال ، ثم نشأ أمر الحكمين والتحكيم مما هو مشهور .

*

* *

يقول بعض رجال التأريخ : هذه خديعة المصاحف ، لا شك فى أنها خديعة ، ولكنها خديعة مؤسسة على معرفة نفسية ، وهذا هو الوجه الذى يهمنا فيها ، فإن الذى فطن لها كان عارفاً بنفوس القوم المعرفة كلها ، لقد كان مع على فى حرب صفين صحابة من بدر ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وهم أهل دين متين ، فإنهم إذا رأوا المصاحف مرفوعة على الرماح عرفوا هذا الرمز ، فذكروا الله وخافوه ، وعمرو بن العص كان يعلم هذا الخوف منهم ، وعلمه هو الذى فتق له حيلة المصاحف ، ومن جهة ثانية فإن القوم ملوا القتال وسئموه ،وقد وردت فى كتب التأريخ أقوال كثيرة قيلت لعلى تدل على هذا الملل

ولقد كثر القتل فى العسكرين ، حتى ضجر الناس من القتال، ولا ريب فى أن عمرو بن العص قد شعر بهذا الضجر من قبل القوم ،فاستند إليه ، فكأنه كان ينظر إلى بواطن الفريقين حين مرت بذهنه خديعة المصاحف ، وعلى كل حال فإن هذه الخديعة التى أوحى إلى صاحبها بها علم النفس كان فيها حقن دماء المسلمين، وخديعة فيها منتهى حرب ومنتهى دماء إنما هى خديعة خير

معاوية بن أبي سفيان

ما أظن أن أحداً من العمال والخلفاء تمكن من معرفة النفوس تمكّن معاوية من هذه المعرفة ، فلا يخفى عليه أمر من أمور الأفراد والجماعات والدول ، ولا تشكل عليه طبائع أهل البلاد ، وهذاالتعمق فى معرفة النفوس هو الذى مهد لسياسته السبيل إلى طول مدتها ، فليس بالأمر الهين أن يقضى عشرين سنة عاملا ، وعشرين سنة خليفة ، ولقد استطاع بفضل نصيبه من علم النفس أن يجتنب كثيراً من الشر ، فهو يعرف من يحيط به من الناس ، و يعرف كيف يخاطبهم و يعاملهم ، و يعلم طبائع البلاد التى انبسط سلطانه عليها ، فساس هذه البلاد على قدر علمه بطبائعها ، ولو شئت أن أخوض فى الأخبار الصغيرة والكبيرة التى تدل على وفور نصيبه من علم النفس لامتد بى نفس الكلام ، وحسبى التنبيه على أن له عيناً تنفذ إلى القلوب فترى ما يحس به كل قلب منها ، وأن له أذناً تسمع ما تسره

هذه القلوب ، فلا يسأل أحداً سؤالا إلا عرف من فوره فى جوابه ما يرمى إليه فى هذا الجواب من نصح أو غش ، فلا يأتيه الغش من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا بلغ رجل السياسة هذا المبلغ من المعرفة النفسية استقامت له أموره على ما يحب ويشتهى ، ولم يقتصر معاوية على التجارب وحدها فى سياسته النفسية ، فقد كان يسمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، ثم كان يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، فلم يدرك معاوية الملك بالمنى ، ولكنه أدرك هذا الملك بأمور كثيرة ، فى مقدمتها التجربة والعلم ، وأظن أن ضرب الأمثال من نماذج سياساته هو الذى يقرب صورته من العيون .

مرة كان ذهنه يبادر إلى معرفة ما تضمره القلوب فى بواطنها ، فقد دعا مروان بن الحكم فقال له : أشر علىّ فى الحسين ، فقال

مروان : تخرجه معك إلى الشام ، فتقطعه عن أهل العراق، وتقطعهم عنه ، فقال معاوية : أردتَ والله أن تستريح منه وتبتليني به ، فإن صبرتُ عليه صبرت على ما أكره ، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحمه ، فأقامه .

أفيرى القارىء الكريم كيف يدرك معاوية أسرار النفوس من ظواهر الكلام ، وهذا الإدراك هو الذى نجّاه من غش أهل الغش وإذا قدر رجل السياسة على السلامة من غش أهل الغش . قدر على السلامة من ورطات كثيرة .

ومرة كان علمه بنفوس البشر يحمله على التجاهل والانخداع ، ذكر صاحب الأغانى أن ابن الزّبير الشاعر لما هرب من عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره ، فتظلم منه ، فقال : أحرق لى داراً بمائة ألف درهم ، فقال معاوية : ما أعلم بالكوفة داراً أنفق عليها هذا القدر ، فمن يعرف صحة ما ادعيت ، قال : هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك ، فقال معاوية للمنذر : ما عندك فى هذا ، قال : إنى لم آبه لنفقته على داره ومبلغها ، ولكنى لما دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها أعطانى عشرين ألف درهم وسألنى أن أبتاع له بها ساجاً

من البصرة ، ففعلت ، فقال معاوية : إن داراً اشترى لها ساج بعشرين ألف درهم لحقيقة أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم وأمر له بها ، فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم : أى الشيخين عندكم أكذب ! والله إنى لأعرف داره ، وما هى إلا خصائص قصب ، ولكنهم يقولون فنسمع » ويخادعونا فننخدع ، فجعلوا يعجبون منه .

ليس فى كذب هذين الشيخين : الشاعر عبد الله بن الزبير والمنذر بن الجارود شىء من العجب ، ولا فى فطنة معاوية لهذا الكذب شىء من البراعة ، ولكن البراعة كل البراعة فى استعداد معاوية لسماع الكذب وهو عالم به ، وفى انخداعه وهو شاعر بالخديعة ، حتى ظن الشيخان أنه صدقهما وأنهما غشاه ، وهذا أسلوب من أساليب معاوية فى سياسة الناس ، يعلم بالكذبة فينزلها منزلة الصدق ، و يعلم بالخديعة فيحلها محل النصح، يتجاهل حين التجاهل ، و ينخدع حين الانخداع ، بحسب مقتضى الحال ، ولو لم يفعل هذا وأشباهه لما وجد مدخلا على قلوب الناس ، وتمكنا من هذه القلوب ، فليس فى كل وقت يجوز لخليفة مثل معاوية تكذيب اللاجئين إليه ، فقد يضطر فى بعض

الأحوال إلى النزول إلى مراتب تفكير الناس وحيلهم ومداخلهم ومخارجهم حتى يتم أنسهم به ، ويكمل اطمئنانهم إليه ، ولولا هذا النزول لاشتدت الوحشة منه ، وهذا مذهب لا يحذقه إلا معاوية أو من كان مثل معاوية فى سياسة الناس !

ومن هذا النمط خبر قراءته فى مروج الذهب فى خلال كلام المسعودى على حسن الاستماع إلى الملوك ، فقد كان يزيد بن شجرة يسامر ذات يوم معاوية ، وكان آنساً به و إلى حديثه تائقاً ، ومعاوية مقبل عليه ، يحدثه عن يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش ، وقد فنى فى تلك الحرب خلق من الناس ، وكان معاوية معجباً بهذا الحديث ، فبينما هو يحدث به يزيد بن شجرة ويزيد مقبل عليه وقد استخفتهما لذة المحدث والمستمع ، إذ صك جبين يزيد بن شجرة حجر عائر ، فأدماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وغير ذلك ، ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : لله أنت يا ابن شجرة ! أما ترى ما نزل بك ! قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا دم يسيل على ثوبك ، فقال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى وغطى على قلبى، فما شعرت

بشيء مما حدث حتى نبهني عليه أمير المؤمنين ، فقال معاوية

لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفين ، ثم أمر له وهو في سيره بخمسمائة ألف درهم وزاده في عطائه ألفاً من الدراهم وجعله بين جلده وثوبه .

وقد قال بعض أهل المعرفة والأدب في هذا الخبر أقوالا ، فمنهم من رأى أن يزيد بن شجرة قد خدع معاوية بكلامه حتى انخدع فكان أفطن من معاوية ، ومنهم من رأى أن يزيد بن شجرة كان بليداً في كلامه ، فلا يستحق هذا العطاء من قبل معاوية على مثل هذه البلادة ، وعندى أن يزيد بن شجرة أراد بمثل هذا الكلام أن يدخل السرور على قلب معاوية ، وقد كانت حركته تفصح عن شيء غير قليل من حسن الأدب ، ولكن انخداع معاوية يفصح عن فطنة أبلغ .

وكما كان معاوية عالماً بنفوس الأفراد كان عالما بنفوس الجماعات وأخلاقهم وطبائعهم ، فقد خبر بني هاشم أتم خبر ، حتى عرف ظواهرهم وبواطنهم ، ووقف على عيوبهم وفضائلهم ، فكانت هذه المعرفة أكبر عون له على نجاح سياسته .

بعث معاوية فى سنة أربعين بسر بن أرطاة إلى المدينة ومكة واليمن يتعقب شيعة على ويدعو الناس إلى طاعته ، ويوطد له الأمر، فلما وصل إلى اليمن كان بها عبيدالله بن العباس فخرج عنها ولحق بعلى ، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكنانية ، فقتلهما وقتـل معهما خالاً لهما من ثقيف ، وقد تكلم أبو الفرج الأصبهانى على قتل بسر لهذين الصبيين فقال:

لما كانت الجماعة واستقر الأمر على معاوية دخل عليه عبيدالله بن العباس وعنده بسر بن أرطاة ، فقال له : أأنت قاتل الصبيين أيها الشيخ ؟ قال بسر: نعم أنا قاتلهما ، فقال عبيد الله : أما والله لوددت أن الأرض كانت أنبتتنى عندك ، فقال بسر : قد أنبتتك الآن عندى، فقال عبيد الله : ألا سيف ! فقال له بسر : هاك سيفى ! فلما أهوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثم قال لبسر : أخزاك الله شيخاً ، قد كبرت وذهب عقلك ، وذاك رجل من بنى هاشم قد وترته وقتلت ابنيه ، تدفع إليه سيفك ؟ إنك لغافل عن قلوب بنى هاشم ، والله لو تمكن منه لبدأ بى قبلك ! فقال عبيد الله : أجل والله ! وكنت أثنى به .

لا يتسع المجال للخوض فى حرب على ومعاوية ، فقد جرى

فى هذه الحرب كثير من الدماء حتى استقر الملك لمعاوية ، وليس بالأمر اليسير أن ترضى بنو هاشم عن معاوية بعد أن غلبهم على الملك ، فليس على قلوبهم شيء من الغضاضة إذا رسمت فيها كراهية معاوية ، إنما المهم فى هذا كله أن معاوية لم يغفل عن هذه القلوب التى لم تنس ما فعله بها ، فلم يخدعه منها ظاهر ولا باطن ، وقد أدت معرفته بهذه الظواهر والبواطن إلى حفظ حياته ، فلو تمكن عبيدالله بن العباس من تناول سيف بسر لما أبقى على بسر ولا على معاوية ، وفى مقام مثل هذا المقام ما أقل العيون التى تتغلغل إلى القلوب فتنزع منها أسرارها ، فلو لم تكن لمعاوية عين تصل إلى غوامض القلوب وحملته مرتبته من الخلافة على الاستخفاف برجل موتور لذهبت حياته .

وكما دل هـذا الخبر على معرفة معاوية بقلوب بنى هاشم فقد يدل الخبر الآتى على معرفته بألسنتهم ، قال ابن عبدربه : بينما معاوية بن أبى سفيان جالس فى أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان ابن الحكم : ائذن لى فإنى أسأله ما ليس عنده فيه جواب ، فقال معاوية : لا تفعل فإنهم قوم قد ألهموا الكلام ، وأذن له ، فلما

دخل وجلس قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك ياحسن ويقال إن ذلك من الخرق ، فقال الحسن : ليس كما بلغك ، ولكنا معشر بنى هاشم أفواهنا عذبة شفاهها ، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن ، وأنتم معشر بنى أمية فيكم بخر شديد ، فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم ، فإنما يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك ، ثم قال له مروان قولاً خشناً وسمع من الحسن جواباً أخشن ، حتى غضب معاوية وقال : قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم وأفسد عليكم مجلسكم .

فقد كانت معرفة معاوية بهذه الأسرار النفسية مجناً له يتقى به كثيراً من الشر ، ولولا هذه المعرفة لوقع فى ورطات لا مخارج منها .

ولم يكن علمه بأسرار الأمم أقل من علمه بأسرار نفوس الأفراد والجماعات . لما قدم الشام عمر بن الخطاب قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية فى موكب ثقيل ؛ فجاوز عمر حتى أخبر فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عمر عنه ، فجعل معاوية يمشى إلى جنبه راجلا ، فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية

أأنت صاحب الموكب آنفاً ، مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ولم ذاك ؟ قال : لأنا فى بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت ، فقال : لئن كان الذى تقول حقاً فإنه رأى أريب ؛ وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صدر به هذا الفتى عما أوردته فيه ، فقال : لحسن موارده جشمناه ما جشمناه .

تنطوى هذه الرواية التى رواها يزيد عن أبيه على أشياء كثيرة . فهى تصور لنا استعداد معاوية للتلون بألوان البيئة التى يحلها ، وقد كانت بيئة الشام فى عهده تعودت أبهة الروم وثقل مواكبهم ، فما أحب معاوية أن يبطل هذه العادة ، فجارى الروم فى هذه الأبهة وفى هذه المواكب ، ونقل الملك من الخشونة إلى النعيم ، فالناس عادة مأخوذون بالظواهر ، مولعون بمناظر العظمة ، تؤثر فى حواسهم ، وتعمل فى قلوبهم ، وقد انتفع معاوية بهذه المعرفة النفسية ، فحرص على العظمة فى سلطانه ، تقريراً للعادة التى تعودها أهل الشام وإرهاباً للعدو ، وهذه أمور لا تخرج عن

الآفاق النفسية ، فكانت سياسة معاوية بنت هذه الآفاق ، وهذه السياسة هى التى حملت خليفة مثل عمر بن الخطاب على الاعتراف بحسن مصادره وموارده حتى جشمه ما جشمه ، وقد كان قبله أبو عبيدة بن الجراح عاملاً لعمر على الشام ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى ، فعذل على ذلك وقيل له : إنك بالشام ، ووالى أمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء ، فغيّر من زيك ، وأصلح من شارتك ، فقال: ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول : كان معاوية عارفاً بنفوس الأفراد والجماعات والأمم ، ولما حضرته الوفاة ويزيد غائب دعا بمسلم بن عقبة المرى والضحاك بن قيس الفهرى وقال لهما : أبلغا عنى يزيد وقولا له : انظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل فى كل يوم فأعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم، ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى

بلادهم ، لا يقيموا فى غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم ، لست أخاف عليك غير عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير والحسين بن على ، فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع ، وأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خبٌ خبٌ ، فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا .

فهذا كله يدلنا على أن معاوية لم تبهم عليه طبائع أهل البلاد التى تولى مقاليد أمورها ، فكان يعرف طبائع أهل الحجاز وأهل العراق وأهل الشام ، وكان يعرف أخلاق من اتصل به من الرجال ، وهذه الأنواع من المعرفة النفسية كانت السر فى نجاح سياسته حتى قال فيه عمرو بن العاص : اتقوا آدم قريش وابن كريمها ، من يضحك فى الغضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته .

ولقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب ، ولكن دهاؤه دون دهاء معاوية ، فقد نادى علىّ معاوية فى وقعة صفين وقال له : يامعاوية إعلامَ يقتل الناس بينى وبينك ؟ هلمّ أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ، فقال عمرو لمعاوية: قد أنصفك الرجل فقال له معاوية : ما أنصفت ، وإنك لتعلم أنه

لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره ، فقال له عمرو : وما يحمل بك إلا مبارزته ، فقال له معاوية : طمعت فيها بعدى ! وحقدها عليه .

فهذا عمرو بن العاص على دهائه لم يستطع أن يغش معاوية، ولو كان معاوية يجهله أو يجهل أمثاله لاستثارته كلمة عمرو، ولكن معرفته بنفوس الخلق أبقت عليه حياته .

بيعة يزيد

لئن دلَّ الفصل الذى تقدَّم على مقدار إحاطة معاوية بالسياسة النفسية ، إن هذا الفصل يوضِّح لنا أسلوباً من أساليبه فى هذه السياسة ، وقد ظهر هذا الأسلوب فى طلبه البيعة ليزيد ، ولم يهتم بشىء فى أواخر حياته اهتمامه بهذه البيعة ، لقد كان لابنه يزيد فى قلبه منزلة عظيمة ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن معاوية إذا أتته الأمور المشكلة المعضلة ، بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها ، واستسهال معضلاتها ، فلا عجب إذا جهد فى طلب البيعة له ، وقد عانى فى هذه السبيل ما عانى ، وخاصة لما قدم المدينة ، على نحو ما تأتى الإشارة إليه ، وفاتح قريشاً وغيرهم برغبته فى استخلاف يزيد من بعده على المسلمين ، فقد سمع فى هذا المعنى ما يكره ، قال له عبد الله بن عمر : إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وقال له مروان بن الحكم : اهدأ من تأميرك الصبيان !

وإذا أحببنا أن نعرف مبلغ عناية معاوية بطلب البيعة لابنه يزيد فلا بأس بذكر الخبر الآتي :

كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يستبدل به ، أما بعد فقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وسفهني سفهاء قريش فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق ، فكتب إليه معاوية : أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت شبابك ، وأما ما ذكرته من اقتراب أجلك فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان ، وأما ما ذكرته من سفهاء قريش فحلماؤها أحلوك هذا المحل ، وأما ما ذكرت من العمل فضح رويداً يدرك الهيجا حمل[1] ، فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه فأذن له وخرج جماعة معه ، فلما دخل عليه قال له : يا مغيرة ! كبرت سنك ورق عظمك ولم يبق منك شيء ولا أراني إلا مستبدلاً بك ، قال المحدث عنه : فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه ، فأخبرنا بما كان من أمره ، قلنا له : فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين ! إن الأنفس

---

(١) مثل في النهي عن العجلة .

ليغدى عليها ويراح ، ولبثتُ فى زمن أبى بكر وعمر ، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه ، فإنى قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد ، فقال : يا أبا محمد ! انصرف إلى عملك وأحكم هذا الأمر لابن أخيك ، فأقبلنا نركض على النجب ، فالتفت فقال : والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم

إن خبراً مثل هذا الخبر يدل على أمرين : على شدة رغبة معاوية فى طلب البيعة ليزيد حتى أوشكت هذه الرغبة أن تكون موطن ضعف فيه ، وعلى شعور المغيرة بهذا الموطن ، وقد روى فى كتب التأريخ والأدب على أوجه شتى ، ولكن الجوهر فيه واحد ، وإنا نعلم مقدار محبة معاوية ليزيد ، وسنرى السعى الذى سعاه فى أمر البيعة ، والعقبات التى تقحمها ، فقد كانت هذه البيعة شغله الشاغل ، فاتح الناس بها ثم سكت عنها ، ثم فاتحهم بها ثم سكت ، حتى أمكنته الفرص فأقدم عليها ولم يحجم ، وما زال بها حتى تمت على ما أراد ، فمهارة المغيرة بن شعبة ، وهو من دهاة العرب ، كانت فى الإحساس بهذه الرغبة فى نفس معاوية ، ولم تكن نفس معاوية رقيقة الحجاب ، فإن الحجب التى تسترها

لكثيفة ، فالخلوص إليها يستلزم كثيراً من الفطنة والدهاء ، ولم يعوز المغيرة شيء من ذلك ، فقد استطاع بكلمة أن يغير رأى معاوية فيه ، وأن يرده إلى حسن الظن به وجميل الاعتقاد فيه ، استطاع بكلمة أن يحمله على إقراره فى الكوفة بعد أن كبرت سنه ورق عظمه واقترب أجله وسفهه السفهاء ، وما كانت هذه الكلمة خارجة عن الآفاق النفسية ، على أنه قد يجوز أن معاوية قاتح المغيرة بما قاتحه به فى صدر الأمر من باب الاستدراج حتى يعلم ما عنده فى يزيد ، وعلى هذا الوجه فإن دهاءه فى هذا الموقف أعظم من دهاء المغيرة .

ولئن بسطت هذه المقدمة قبل الخوض فى الكلام على بيعة يزيد ، فلم تكن المقدمة عبثاً ، إنها دلتنا من جهة على ناحية نفسية ، دلتنا على خلوص المغيرة إلى أعماق نفس معاوية أو خلوص معاوية إلى أعماق نفس المغيرة ، ودلتنا من جهة ثانية على الاهتمام الذى كان يهتمه معاوية ببيعة يزيد ، فلنشرع الآن فى أمر هذه البيعة .

ظهرت عبقرية معاوية فى علم النفس فى مواضع كثيرة من سياسته ، وقد اخترت فى هذا المقام موضعاً واحداً منها ، وهو طلبه

البيعة ليزيد ، لقد تفنن فى هذا الطلب كل تفنن ، وسلك إليه كل مسلك ، سلك ما نسميه فى هذا العصر « الدعاية » وهو مسلك لا يحتاج إلى توضيح ، فلا يغفل واحد منا عن تأثير « الدعاية » فى الأمم ، حتى بلغ من هذا التأثير أن جعلت بعض الدول وزارة خاصة بها ، فإن من أساليب «الدعاية» التكرير ، وهذه طريقة مشهورة ، ولا سيما فى التربية والتعليم ، فإن الأساتيذ والمعلمين يلجؤون إليها ليسهل تقرير ما يريدونه فى أذهان الطلاب .

ولم يكتف معاوية بأسلوب «الدعاية» وحدها ، فإنه قصد إلى النفوس فسبر أغوارها ، وخبر بواطنها ، ثم استعان باللين ، ثم عمد إلى الشدة ، حتى استطاع بعد هذا كله أن يتمم البيعة ليزيد، على الرغم مما قاساه فى هذا الباب ، ولم تكن أساليبه فيه إلا نفسية؛ لم تتشابه كتب التاريخ والأدب فى وصف بيعة يزيد ، فبعض هذه الكتب مناقض لبعض فى طائفة من تفاصيل هذه البيعة ، ولما كان كتابى ليس من التاريخ فى شىء ، وكان همى الوحيد فيه استنباط العناصر النفسية من سياسة بعض عمال المسلمين وأمرائهم وخلفائهم ، أو من بعض أخبار التاريخ ،

عولت على الرجوع إلى كتب مختلفة آخذ من كل واحد منها ما يعيننى على توضيح موضوعى الذى أعالجه ، أما الدقة فى الأخبار والتفاصيل فإنها تطلب فى أمهات كتب التأريخ .

جاء فى العقد الفريد أنه لما مات زياد وذلك سنة ثلاث وخمسين أظهر معاوية عهداً مفتعلا ، فقرأه على الناس ، فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ويعطى الأقارب ويدانى الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

لم يفاجئ معاوية الناس مفاجأة برغبته فى عقد البيعة ليزيد ، لأنه يعلم أن كثيراً منهم يخالفونه فى رأيه ، فتلطف فى هذا الأمر واحتال له ، وذلك أنه افتعل عهد البيعة ليرى تأثيره فى الناس ، ثم مهد السبيل إلى هذه البيعة سبع سنين ، وهى مدة كافية على ما أعتقد ، فإن النفوس التى تسمع فى خلال سبع سنين تكرير فضائل يزيد وكفاءته يرسخ فيها الإيمان بهذه الفضائل والكفاءة حتى تصبح عقيدة مكينة .

كان معاوية فى خلال هذا الترويض لا يغفل عن استشارة الناس فى أمر البيعة ، وهو لم يذهب هذا المذهب للاستعانة

بآرائهم، و إنما كان يريد أن يعرف ما تنطوى عليه نفوسهم، حتى يعد لكل أمر عدته ، قال لعبد الله بن الزبير: ما ترى فى بيعة يزيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل إن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم ، فضحك معاوية وقال : ثعلب روّاغ ! تعلمت الشجاعـة عند الكبر ، فى دون ما تشجعت به على ابن أخيك ما يكفيك ، ثم التفت إلى الأحنف فقال : ما ترى بيعة يزيد ؟ قال : نخافكم إن صدقناكم ، ونخاف الله إن كذبنا .

من ضحكة معاوية يتبين لنا أنه لم يسأل ابن الزبير عن رأيه فى بيعة يزيد من باب الاستعانة بهذا الرأى ، و إنما سأله حتى يعرف ما تضمره نفسه ، ولم يتقن ابن الزبير روغان الثعالب ، لأنه لو أتقن هذا الروغان لما استعمل مع رجل مثل معاوية هـذا الأسلوب من الكلام ، كان يجب عليه أن يعرف أن معاوية لم يسأله عن رأيه فى يزيد إلا من باب الاستدراج ، فما أسرع انكشاف ابن الزبير لمعاوية ، وما أسرع خبرة معاوية بروغان ابن الزبير .

لم يكتف معاوية بهذه الاستشارات ، فإنه أراد الإمعان فيها لعل آراء الناس تغيرت فيقدم على البيعة ، أو لعلها لم تتغير فيتلبث فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم .

بين هذه الوفود رجال لا يوافقون معاوية على رأيه فى العقد ليزيد ورجال موافقون له على ذلك ، فاذا بدأ باستشارة الأولين علانية خاف أن تكون مخالفتهم مثبطة لجماعته ، فدعا بأحد وفود المدينة وهو محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية وقال له : ما ترى فى بيعة يزيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أصبح اليوم على الأرض أحد هو أحب إلى رشداً من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، واسطاً فى الحسب ، وإن الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تولى أمر أمة محمد ، فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء ، وذلك فى يوم شات ، ثم قال : يا محمد ، إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك ، إنه لم يبق إلا ابنى وابناؤهم ، فابنى أحب إلىّ من أبنائهم ، اخرج عنى .

من حسن سياسة معاوية كما قلت أنه لم يسأل ابن حزم

علانية ، و إنما سؤاله كان بعد الخلو به ، فكأنه كان عارفاً بأن جوابه لا يرضيه ، نخاف أن يؤثر هـذا الجواب فى جماعته أثراً قبيحاً ، فيغيروا آراءهم من باب العدوى ، فلم يبق لمعاوية إلا تدبير الأمر ، وهو تهيئة ناس يوافقونه على بيعة يزيد ، فجلس فى أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه ، وقد تقدم إلى أصحابه أن يقولوا فى يزيدَ ، إنى لا أرى حاجة إلى إعادة أقوالهم ، فإنها مدونة فى كتب التاريخ والأدب ، و إنما أكتفى بالتنبيه على أن هذه الأقوال كلها أجمع أصحابها على التغنى بحسن معونة يزيد وقصد سيرته وفضل حلمه وعقله وأمثال هذه الفضائل .

فلما تمت بيعة العراق والشام قوى أمر يزيد بعض الشىء ، فاستطاع معاوية بعد ذلك أن يفاتح أهل الحجاز بها .

كان مروان بن الحكم عامله على المدينة ، فكتب إليه معاوية يذكر الذى قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد ، ويأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة للمبايعة ليزيد ، فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى البيعة ليزيد وأبتها قريش ، فكتب لمعاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك ، فأرنى رأيك ، فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف ذلك من قبله ،

فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، وفى تاريخ المسعودى أن معاوية بعد عزله مروان عن المدينة ولاها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع .

فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلى البيعة ليزيد وأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لا سيما بنى هاشم ، فلم يجبه منهم أحد وكان ابن الزبير أشد الناس إنكاراً لذلك ورداً له ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية بهذه الأمور كلها ، فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير وإلى عبد الله بن عمر وإلى الحسين بن على كتباً ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها ، وأوصاه بالرفق وحذره الخرق وأوصاه بالحسين خيراً ، وقد كانت كتب معاوية تجمع بين الشدة واللين ، بحسب من كان يكتب إليهم ، وكذلك الجوابات ، بعضها كان شديداً ، وبعضها كان ليناً .

فلما جاوب القوم معاوية بما جاوبوه به من الخلاف لأمره

والكراهية لبيعة يزيد . كتب مرة ثانية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذاً بغلظة وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لايحرك أولئك النفر الذين كاتبهم وكاتبوه ، ولا يهيجهم فلما قدم عليه كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد منهم ، فكتب إلى معاوية إنه لم يبايعنى أحد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ولم يتخلف عنك أحد .

فلم يبق لمعاوية إلا سبيل واحدة ، وهى الركوب إلى المدينة بنفسه ، فلننظر فى الأساليب التى تبعها مع الذين أنكروا بيعة يزيد .

قدم معاوية المدينة حاجًّا ومعه خلق كثير من أهل الشام ، فلما دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكب وماش ، وخرج النساء والصبيان ، فلقيه الناس على حال طاقتهم وما تسارعوا به فى القوت والقرب ، فلان لمن كافحه وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده مقاربة ومصانعة ، يستميلهم إلى ما دخل فيه الناس ، حتى قال فى بعض ما يجتلبهم به : أهل المدينة !

ما زلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه .

حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين بن على وعبدالله بن عباس فقال معاوية : مرحباً بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه ، ثم انحرف إلى الناس فقال : هذان شيخا بنى عبد مناف ! وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة ويضاحك هذا أخرى ، حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان ، يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل فانصرفا عنه .

مال الحسين إلى منزله ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله ، وأقبل معاوية حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن عليها ، فأذنت له وحده ، لم يدخل عليها معه أحد ، وكل هم معاوية فى حديثه معها إقناعها بأن الناس بايعوا يزيد فلا يجوز نقض عهودهم ومواثيقهم .

ثم خرج من عند عائشة حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن على فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير فخلا به ، ثم أرسل

بعده إلى ابن عمر فخلا به ، ثم أرسل إلى عبد الرحمن بن أبى بكر فخلا به ، ومن أراد أن يعرف تفاصيل ما دار بينهم من الأحاديث فليرجع إليها فى كتاب الإمامة والسياسة ، فكلها ترمى إلى حملهم على بيعة يزيد ، ولم ينجح مسعاه فى هذا الباب .

فلما كان اليوم الثانى أمر بفراش فوضع له وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاءه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية وعمامة دكماء ، وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، وقد تغلف وتعطر ، فقعد على سريره وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبيه أن لا يأذنا لأحد من الناس وإن قرب ، ثم أرسل إلى الحسين بن على وعبد الله بن عباس ، وقد ذكر ابن قتيبة تفاصيل إكرامهما ، وكل غاية معاوية من حديثهما حملهما على بيعة يزيد ، فلم يدرك ما يريد منهما ، فصرفهما ، وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبى بكر وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله بن الزبير ، وقد طال الكلام بينه وبينهم ، فلم يظفر بما يرجوه منهم .

ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ،

فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد هؤلاء النفر حول المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته القرآن، ثم خطب خطبة قصده منها أنه بايع يزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، وقد جرى بينه و بين الحسين كلام شديد ، ثم قام عبد الله بن الزبير إلى معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر ، وهو أقصى قريش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطاً من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

لقد أصرّ القوم على إنكارهم البيعة ليزيد ، ولم يبق لمعاوية متسع من الوقت يلاطف فيه من يلاطف ، ويجامل فيه من يجامل ، أو يتهدد فيه من يتهدد ، فقد ذهب فى اللين كل مذهب ،

فما نفعه لينه ولا نفعته ملاطفته ، فما هو الأمر الذى هيأه بعد هذا النوع من السياسة ؟

نزل معاوية عن المنبر وانصرف ذاهباً إلى منزله وأمر من حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة وهم : الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأوصاهم معاوية فقال : إنى خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا ، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقنى أو يكذبنى فيه فلا ينقضى كلامه حتى يطير رأسه ، فحذر القوم ذلك ، فلما كان العشى خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم الحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء وألبس الحسين حلة صفراء وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة يمانية ، ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضى عنهم ، وأنهم بايعوا ، فقال : يا أهل الشام ! إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين ، مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا ، قال ذلك والقوم سكوت لم يتكلموا شيئاً حذر القتل ، فوثب أناس من أهل الشام فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم

ريب نخل بيننا و بينهم حتى نضرب أعناقهم ، فقال معاوية
سبحان الله ! ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام ، لا أسمع
لهم ذاكراً بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا وارتضونى فرضيت عنهم ،
رضى الله عنهم ، ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة ، وقد أعطى
الناس اعطياتهم وأجزل العطاء وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها
واعطياتها ، ومضى راجعاً إلى الشام .

على هذا الوجه انتهت رواية بيعة يزيد ، قد يجد رجال التاريخ
فيها ما يجدون ، إنى لا أنظر إليها من حيث وجه الصواب والشرع
فيها ، فهذا أمر أتعداه فى هذا المقام محتفظاً برأيى فيه ، وإنما
أنظر إليها من حيث إنها تلخص لنا سياسة معاوية النفسية
وأساليبه فيها المبنية على علم النفس ، لقد أفرط فى ملاينة سادة
المسلمين الذين أنكروا بيعة يزيد فى المدينة ، وبالغ فى ملاطفتهم
أملاً منه أن يبايعوا يزيد ، وهذه الملاينة وهذه الملاطفة أنواع
من السياسة النفسية ، إلا أن اللين لم يؤد إلى النتيجة التى يريدها ،
فانحرف حينئذ إلى الشدة ، ولكنه احتال فى هذه الشدة حيلة
حقن بها دماء المسلمين ، فجعل سادة المسلمين فى حال من الدهشة
و إذا كان اللين فى بعض الأحيان ضرباً من السياسة النفسية فإن

الشدة فى بعض الأحيان ضرب من هذه السياسة ، فقد ينجح النوع الأول مرة ، وينجح النوع الثانى مرة ، والعاقل من رجال السياسة من يعرف متى يكون هذا النجاح .

لا يهمنا من هذا الفصل كله وإعادة أخبار روتها كتب التأريخ والأدب إلا الوصول إلى هذه النتيجة ، وهى أن معاوية بنى سياسته على أصول نفسية ، وقد نستطيع أن نذكر من هذه لسياسة أشياء كثيرة ، ولكنا لا ننزع إلى الإستقصاء فيها ، وإنما الغاية التى نتوخاها هى التنبيه عليها لا غير ، وأظن أن زياداً بنى سياسته على هذه الأصول نفسها ، اقتداء بمعاوية ، وسننظر فى ذلك فى الفصل الآتى . .

ما ألطف خاتمه هذه الرواية ، قال الناس للحسين وأصحابه :

قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم ، قالوا : لم نفعل ، قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ! قالوا : خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم ! .

مهارة معاوية فى هذا كله أنه كشف عن قلوب سادة قريش فى بيعة يزيد ، فعرف أنهم يخافون القتل ، فمضى فى سياسة التخويف ،

ولو لم يصدق ظنه فيهم ولم يخافوا القتل الذى أشاروا إليه لأفسدوا على معاوية بيعة يزيد فى الحجاز ، ولكن معاوية كان يعرف مايصنع ، كاد شيوخ قريش بالمسلمين وكاد المسلمين بهم ، وهذه أساليب السياسة !

خطبة زياد فى البصرة

إن الكلام على معاوية من ناحيـــة سياسته النفسية يجر إلى الكلام على زياد من الناحية ذاتها ، لما نجد من المشابه بين السياستين ، ولا نحتاج فى توضيح سياسة زياد إلا إلى الوقوف على خطبته فى البصرة ، فإنها عنوان هذه السياسة . والغريب إن رجال الأدب لمـا تصدوا للكلام على خطب العرب أشاروا إلى ناحية الفن فى هذه الخطب ، وأغفلوا الإشارة إلى الناحيـة النفسية فيها ، فقد اشتملت طائفة من خطب العرب على براهين قاطعة تثبت لنا علم أصحابها بأسرار النفوس ووقوفهم على حقائق الطبائع واطلاعهم على ما يستثير الجماهير ويسكنهم ، لقد كان كثير من خطباء العرب ، عمالهم وأمرائهم وخلفائهم علماء النفس قبل أن يكونوا أمراء البيان ، راضوا النفوس قبـل أن يروضوا الكلام ، وملكوا أزمة النـاس قبل أن يملكوا أزمة البلاغة ، ويكاد يكون لسعة علمهم ببواطن النفوس الأثر الأبلغ فى نجاح سياستهم فى قديم الدهر .

من هذه الطبقة زياد ، قدم البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان والفسق فيها فاش ظاهر ، فخطب خطبته البتراء المشهورة ، فهل نستطيع وقد تباعدت الأحقاب بيننا وبينه أن نرجع إلى خطبته ، فنستخرج منها الأصول التى بنى عليها سياسته ، هل نستطيع أن نعرف زياداً فى خطبته البتراء ، فلنقرأ هذه الخطبة مرة ثانية .

لا شك فى أن الذين سمعوا خطبة زياد كانوا من طبقات شتى ، فمنهم أهل البيوتات والأنساب والآداب ، ومنهم العامة ، فبأى طراز من الكلام لقى زياد هذه الجماهير المختلفة ، فلنسمع فاتحة خطبته :

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ! »

جهالة جهلاء وضلالة عمياء وغى موف بأهله على النار ، هذه مقدمة الكلام الذى لقى به زياد أهل البصرة ، سفهاءها وحلماءها صغارها وكبارها ، ولا ريب فى أن مثل هذا الكلام ليس من شأنه أن يكون له وقع حسن فى نفوس الذين سمعوه ، فليس من

الهين أن ينسب الوالى أهل البصرة إلى الجهالة والضلالة والغى وأن يرضوا عنه ، فكيف حاول زياد أن يصدر عن هذا المورد العكر الذى ورده ، لقد قذف بما قذف به فى مقدمة الخطبة ، ولم يندفع فى هذا النمط من القول ، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به ، بعد أن ظهرت الشدة على كلامه ، أحب أن يظهر اللين عليه ، فقال :

« كأنكم لم تقرؤا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول » .

لم يجد زياد أبلغ من كتاب الله للاستعانة به على سفهاء البصرة وحلمائها ، فبعد أن آلمهم بما آلمهم به تحصن بكتاب الله ، وهو الحصن الحصين فى مثل هذه الحال ، فذكر أهل الجهالة والضلالة والغى بكريم ثواب الله وبأليم عذابه ، وكأن زياداً قد علم بأن الاستعانة بكتاب الله تمهد له السبيل إلى النفوس ، فتبسط فى هذا الضرب من الوعظ فقال :

« أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم

فى الإســلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله » .

فاستعمل زياد طفيفاً من الحكمة فى تنبيـه أهل البصرة على أعمالهم ، مثل إيثارهم الدنيا وسد الشهوات لمسامعهم ، فكان كلامه عاماً ليس فيه شىء من التخصيص ، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التى خالفوا فيها كتاب الله ، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحد من هــذه الأمور ، وهو ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وفى هـذا الكلام شىء من إلقاء العداوة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا شك فى أن فى جملة من سمع خطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء .

فلما تمكن بعض التمــكن من قلوب النــاس ، سواء أكان هذا التمــكن بالتذكير بكتاب الله ، أم باللجوء إلى يسـير من الوعظ ، أم بالاغراء بين الضعفاء والأقوياء ، خلا له الجو فاستطاع أن يكاشف أهل البصرة ، سفهاءها وحلماءها بأنواع جهالاتهم وضلالاتهم وغيهم فقال :

« ماهذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟! ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن

مدلج الليل وغارة النهار ؟ قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب » .

هذه حالة البصرة لما قدمها زياد عاملا لمعاوية : مواخير منصوبة ، ضعيفة مسلوبة ، غواة فى الليل والنهار ، إغضاء على المختلس ، ذبٌّ عن السفيه ، ولعمرى إنها لأمور مخالفة لكتاب الله ، مخالفة لقانون الاجتماع ، أمور لا يصح لعامل مثل زياد أن يسكت عنها ، لأن فى السكوت عنها ضياعاً للمسلمين ، وضياعاً لزياد نفسه ، وضياعا لسياسة معاوية أمير المؤمنين ، فماذا أعد زياد لأهل البصرة ، وحالهم على ما علمنا ؟ هذه خطته :

« حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله

لآخذنّ الولّى بالمولِّى والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ، أو تستقيم قناتكم ! »

الآن تكشف زياد لأهل البصرة ، فظهرت سياسته فى حقيقة صورتها : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، ولكن الشدة كانت أغلب على كلامه من اللين ، ولئن لم تظهر هذه الشدة فى عزمه على هدم مكانس الريب وإحراقها إنها قد ظهرت فى أخذه الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، ولولا هذه الشدة ما استقامت قناة أهل البصرة ، لولا هذا العنف ما استطاع زياد أن يضبط من أهل البصرة ما ضبط ، وأحوال الاجتماع فيها على ما علمنا .

ولكن زياداً خاف أن لا يصدقه الناس فى الذى عزم عليه ، فقد خاف أن يرموه بالكذب فى يمينه ، فاضطر إلى تأييد هذه اليمين بقوله : « إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ ، واعلموا أن عندى أمثالها » .

أما وقد اطمأن زياد إلى أن كلامه قد وقع فى آذان الناس

وقلوبهم ، ولم يخف بعد هذه الطمأنينة شيئاً من تكذيب الناس إياه فليبادر إلى إيضاح سياسته فى إصلاح حال البصرة، وليتوسع فى تبيين العقوبات التى أعدها فى مثل هذا الإصلاح .

« من نُقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فإياى ودلج الليل ، فإنى لا أُوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحداً دعابها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، من غرّق قوماً غرّقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ».

يتبين لنا أن العقوبات التى وضحها زياد فى هذا الكلام أخف من العقوبات التى ذكرها من قبل ، فالفرق ظاهر بين أخذ الولى بالمولى مثلا وبين تغريق من يغرق قوماً فقد نزل زياد عن شدته بعض الشىء فأمن الناس على أموالهم وأرواحهم وأحدث لكل ذنب عقوبة ، فقد كانت البصرة حين مقدم

زياد فى حالة لا يصلح معها اجتماع ولا ينمو فيها مال ولا يكثر عمران، وأى بلد أسوأ حالا من البلد الذى يفشو فيه التغريق والإحراق والنقب والنبش وأشباه هذا كله ؟ ! فبعد أن أدخل زياد على أهل البصرة الطمأنينة إلى أموالهم وأرواحهم ، و بعد أن خوّف سفهاءها بهذه العقوبات التى أحدثها ، لجأ إلى اللين فى كلامه حتى يستميل القلوب إليه فقال : « وقد كانت بينى وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحسانا ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته ، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدى صفحته لى ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربّ مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس ».

إنا نجد زياداً فى هذا الكلام طوى أحقاده وظهر فى أخلاق الوالى المنصف ، فلا يحاسب الناس على بواطنهم ، فقد أخذ يتشبه فى هذه السياسة بسيدنا عمر بن الخطاب ، وعلم بأن مثل هذه السياسة تزيد فى تمييل الناس إليه ، بعد الشدة التى ظهرت آثارها على كلامه ، فتبسط فى هذا المذهب فقال :

« أيها الناس! إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلا على كل، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله » .

هذا كلام أشبه شيء بكلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد انسحب زياد على أذيال عمر فى هذه السياسة ، فجعل بين الراعى والرعية هذه الصلة المتينة . صلة المناصحة ، فإذا فقدت المناصحة بين الحكومة وبين الأمة تمكن من الأمة كره الحكومة، وتمكنت من الحكومة النقمة على الأمة ، ومتى اشتدت الكراهية من ناحية

الشعب والنقمة من ناحية الحكومة ضاعت الحكومة والشعب في وقت واحد . وهذا ما فطن له زياد فى أواخر خطبته فأحب أن يصور الولاة للأمة فى صورة الكهف الذى ترجع إليه فى شدائدها ، فإذا صلح الوالى صلحت الأمة و إذا فسد فسدت ، وهذا هو المثل الأعلى فى الحكم .

إلا أن زياداً خاف أن يكون اللين آخـر ما يعلق بأذهان أهل البصرة من خطبته، وخاف أن ينسوا الشدة التى غلبت على بعض كلامه ، والعقوبات التى أحدثها لذنوبهم، والخلاصة خاف أن ينسوا زياداً فهدر هذا الهدير فقال :

« وايم الله ! إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى ! »

وهكذا فقد بدأ خطبته بالشدة وختمها بالشدة ، أما اللين فكان يتخلل كلامه .

***

أما وقـد فرغنا من قراءة خطبة زياد فى البصرة ، فهل استطعنا أن نعرف سياسته النفسية من خطبته ، أظن انا لاحاجة بنا بعد أن دققنا فى كلامه هذا التدقيق إلى السؤال عن عناصر

هذه السياسة ، فقد كان تصرفه فى خطبته عنوان تصرفه فى سياسته النفسية ، ولئن كان مكتوبا فى مجلسه : الشدة فى غير عنف واللين فى غير ضعف فتكون هذه الحكمة أبرز شىء فى سياسة زياد ، فان لجوءه فى كلامه إلى الرفق مرة وإلى الغلظة مرة ، ثم تقلبه بين الوعد والوعيد ، دليل على حذقه أساليب السياسة النفسية وعلى مهارته فى مداخلها ومخارجها ووقوفه على طبائع الناس ، ولولا هذه البراعة فى السياسة وعلم النفس ما كتب له هذا النصيب من التوفيق ، فلنرجع الآن إلى خطبة زياد فى البصرة ، ولنملأ خواطرنا منها ، فلعل فهمنا لأسرارها النفسية ولمحاسنها يكون أتم وأكمل ، وإذا قرأنا خطب رجالات العرب فى القديم على هذا الوجه فإنى أعتقد أنا نختصر المسافة بين أفهامنا وبين إدراك عبقريتهم !

عبد الملك بن مروان

من أية ناحية فهم عبد الملك بن مروان روح الجماهير فبنى سياسته عليها ، قد يجوز أنه أدرك هذه الروح من مواضع كثيرة، ولكني أقتصر في هذا الفصل على قليل منها ، ولا عبرة بكثرة الأخبار التى تدل على تمكن عبد الملك من المعرفة النفسية فى السياسة ، وحسبي فى هذا المقام خبران ، فأنا لا أستقصى فى هذا الكتاب فى أخبار التأريخ . كان عبد الملك بن مروان من رجال السياسة المشهورين فى بنى أمية ، فهو يستلزم إفاضة فى الكلام عليه ، وتوسعاً فى وصفه ، على نحو ما جرى فى الكلام على معاوية ، ولكن خبرين قد يدلان على علو منزلته فى السياسة النفسية.

قرأت فى فصل من فصول كتاب فرنسى «معجزات الفكر» العبارة الآتية : الرجل الذى يستطيع أن يبتسم والأمور من حوله سيئة أفضل من الرجل الذى يضعف فى الشدائد ، الرجل الذى

يبتسم والزمن متألب عليه يدل على أنه من معدن رفيع ، فلا يقدر على مثل ذلك أى رجل كان .

وأظن أن عبد الملك بن مروان هو الرجل الذى يتسم بهذه الصفات ، سار فى جيوش أهل الشام ، فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد ، وقد كان ابن زياد يقود عساكر الشام من قبل عبد الملك لمحاربة العراق ، فأتى عبد الملك خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل ، ثم جاءه خبر دخول نابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوى بن فلقط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة وأن خيل الأعراب أغارت على حمص و بعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نمى إليه من المقطعات فى تلك الليلة ، فلم يُرَ عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجهاً ولا أبسط لساناً ولا أثبت جناناً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك ، فترك إظهار الفشل و بعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم فشغله وهادنه ،

وسار إلى فلسطين و بها بابل بن قيس على جيش ابن الزبير ، فالتقوا بأجنادين ، فقتل بابل بن قيس وعامة أصحابه وانهزم الباقون ونمى خبر مقتله وهزيمة الجيش إلى مصعب بن الزبير وهو فى الطريق فولى راجعاً إلى المدينة ورجع عبـــد الملك إلى دمشق فنزلها .

هذه شدائد حسب الواحدة منها أن تضعضع عبد الملك وهو يمهد سلطانه ويحارب أعداءه ، ولـكن الرجال لا تظهر قوة أعصابهم إلا فى الشدائد ، فقد كان الملك يعرف حق المعرفة أنه إذا تضعضع لأمر من الأمور التى أصابته فى تلك الليـلة ذهب سلطانه ، وهذه المعرفة مقتبسة عن خبرته لطبائع الناس الذين إذا استضعفوا رجلاً صاحب ملك انفضوا من حوله وكانوا حرباً عليه عرف كيف يستقبل الشدائد ، عرف كيف يبتسم والأحوال من حوله سيئة وكيف ينطلق وجهه والزمن متألب عليه ، لأنه من معدن غير معدن الناس ، إنه جبار لا يبالى ما يصنع ، على نحو ما قال المنصور فيه ، فلولا علم عبـد الملك بأخلاق البشر وروح الجماهير وقرنه سياسته بهذا العلم لذهب ملـكه من تلك الليلة .

ولا بأس بأن أضيف إلى هذا الخبر خبراً آخر ما دمت أتكلم

على الشدائد التى لقيها عبد الملك فى ليلة من لياليه ، ولئن خرج من المأزق الذى سبق وصفه بمعرفته النفسية من حيث التجلد للشدائد لقد خرج من المأزق الآتى بالمعرفة النفسية من حيث تأثير المال فى الجماهير .

يتعلق هذا الخبر بقتل عبد الملك بن مروان لعمرو بن سعيد الأشدق ، وقد رويت أخبار هذا القتل على أوجه شتى ، من جملة الذين رووها ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة وابن عبدربه فى العقد الفريد .

إنّا نعلم أن عبدالله بن الزبير دعا الناس إلى بيعته بعد موت يزيد بن معاوية ، وقد أتته بيعة أكثر الآفاق حتى قتله الحجاج على أيام عبد الملك، ولكنه قبل أن يقتل أجمع رؤساء أهل العراق وأشرافهم على خلعه لأنهم يئسوا مما عنده ولم يرجوا رفده ، فقد كان بخيلا، وبخله أبعده عن الملك ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن سر إلينا، فلما أراد عبدالملك أن يسير إليهم وخرج من دمشق استخلف عليها عبدالله بن يزيد ، فلما شارف الفرات انخزل عمرو بن سعيد الأشدق من عسكره وصار إلى دمشق ، فبايعه عبدالله بن يزيد وأغلق أبواب دمشق ، فانكفأ عليه عبد

الملك راجعاً إليه ، فحاصر أهل دمشق أشهراً حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق ، ولما اصطلح عبد الملك وعمرو بن سعيد الأشدق على هذا الأمر أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتنى أبا أمية حتى أدبر معك أموراً ، فخرج ليأتيه، فقالت له امرأته : لا تذهب إليه فإنى أتخوف عليك وإنى لأجد ريح دم مسفوك ، فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها ، فتركته فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته مسلحين فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك فقالوا لعمرو إذا دخلت على عبد الملك ، أبا أمية ، ورابك منه شىء ، فأسمعنا صوتك ، فقال لهم : إن خفى صوتى ولم تسمعوه فالزوال بينى و بينكم ميعاد ، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم فاعلموا أنى مقتول أو مغلوب ، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم ولا تغمدوا سيفاً حتى تأخذوا بثأرى من عدوى ، فدخل وجعلوا يصيحون أيا أبا أمية ، أسمعنا صوتك ، وكان معه غلام أسحم شجاع ، فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس ، ليسمع عبد الملك أن وراءه جماعة ، ففطن عبد الملك إلى ذلك وقال له : أتمكر يا أبا أمية عند الموت ، خذوه ، فأخذوه ، فأمر

عبدالملك أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله، فلم يقتله عبد العزيز لأنه تمسك منه بالرحم، فأمر عبد الملك رجلا عنده فضرب عنقه ثم أدرجه في بساط ثم أدخله تحت السرير، فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وكان أحد الفقهاء، وكان رضيع عبد الملك بن مروان وصاحب خاتمه ومشورته، فقال له عبد الملك: كيف رأيك في عمرو بن سعيد؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: جزاك الله خيراً، فما علمتك إلا ناصحاً أميناً، موافقاً، ثم قال له: ما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا؟ قال قبيصة: اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها، فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر، فطرحت إليهم وطرحت الدنانير ونثرت الدراهم ثم هتف بهم الهاتف ينادي: إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغنى فقيركم ويبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المائتين في الديوان، فاقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم،

فصاحوا : نعم ! نعم ! سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين !

***

قد يكون فى هذا القتل شىء من الغدر على نحو ما يراه بعض المؤرخين ، إلا أنى لا أنظر إلى الرواية من الناحية الخلقية ، و إنما أنظر إليها من الناحية السياسيَة النفسية ، و إنى لأرجو المعذرة من توسعى فى أخبارها ، فما إلى شىء من التأريخ قصدت ، ولكن هذا الخبر ليس بيسير ، إنه ينطوى على ناحية نفسية دقيقة ، وليس المهم أن يقتل عبد الملك رجلا مثل عمرو بن سعيد الأشدق ، فإن تأريخ العرب لا يخلو من أمثال هذا القتل ، إنما المهم أن يستطيع رجل مثل قبيصة بن ذؤيب الخزاعى أن يقلب جماعة عمرو من حال إلى حال فى دقائق ، لا ريب فى أن عمرو بن سعيد لما ذهب إلى عبد الملك انتخب أشد جماعته إخلاصاً له وتعلقاً به حتى يحموه أو يأخذوا بثأره إذا نزل به أمر ، وقد كانوا من أبطال أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم ، وكان عمرو نفسه محبباً فى أهل الشام ، ولا يهمنا أن نعرف أ كان من الحكمة أن يذهب إلى عبد الملك أم كان من الحكمة أن لا يذهب إليه عملا بمشورة امرأته ، و إنما الذى يهمنا أن نعرفه أن عمرو بن

سعيد الأشدق غاب عنه أمر واحد ، فقد غابت عنه أخلاق جماعته فلم يهتد إلى حقائقها ، وأدرك حقائق هذه الأخلاق رجل بعيد عن عشرتهم ومخالطتهم وهو ابن ذؤيب الخزاعى ، أدرك هذا الفقيه أخلاق أهل البيئة التى كان يعيش فيها ، ولقد انتفع بهذه المعرفة النفسية فى أشد الحاجة إليها ، فلو تأخر عن استعمالها بضع دقائق لما علم إلا الله مصير عبد الملك بن مروان وأهل قصره ، فليس بقليل أن يحيط بهذا القصر أربعة آلاف رجل مسلحين ، من أبطال أهل الشام ، وليس ببعيد أنه لو التحمت الحرب بينهم وبين عبد الملك وجماعة القصر لقتل عبد الملك وأحرق القصر ، ولكن ابن ذؤيب الخزاعى عرف كيف ينجى عبد الملك من هذا القتل ، فهو بطل هـذه السياسة فى مقتل عمرو بن سعيد الأشدق .

ولقد أتقن عبد الملك بن مروان هذه السياسة النفسية فاستعان بها على أمور شديدة جرت فى أيامه ، فإنه لما سار بأهل الشام ومعه الحجاج إلى العراق ليدعو الناس إلى طاعته ويخلص العراق من خلافة عبد الله بن الزبير وولاية أخيه مصعب ، خرج مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة ، فالتقيا بين الشام

والعراق ، وكان عبد الملك ومصعب قبل ذلك متصافيين ، صديقين متحابين ، لا يعلم بين اثنين من الناس ما الناس ما بينهما من الإرخاء والصداقة ، فاجتمع عن الملك بمصعب وخلا به وحاول أن يفصله عن أخيه عبد الله وبذل له الأمان وقال له . إنه يعزّ على أن أن تقتل ، فاقبل أمانى ولك حكمك فى المال والولاية فأبى ؛ فلما قطع أمله منه كتب إلى أناس من روساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ويجعل لهم أموالا عامة وشروطاً وعهوداً ومواثيق وعقوداً وكتب إلى إبرهيم بن الأشتر يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأصحابه على أن يخلعوا عبد الله بن الزبير إذا التقوا ، فاعلم إبراهيم بن الأشتر مصعب بن الزبير بذلك وأشار عليه بضرب أعناق من كتب إليهم عبد الملك أو بحبسهم ، فلم يفعل مصعب شيئاً من ذلك ، فلما التقت جماعة عبد الملك وجماعة مصعب حولت جماعة مصعب رؤوسهم وتركوه وخذلوه ومالوا إلى عبد الملك بن مروان وبقى مصعب فى سبعة نفر ، ثم قتل !

هذه سياسة من يعرف روح الجماعات ، فيسوس هذه الجماعات من ناحية هذه الروح !

الحجاج

لئن دلت خطبة زياد فى البصرة على جوهر سياسته النفسية لقد دلت خطبة الحجاج فى الكوفة على الجوهر نفسه ، ولكن الفرق بين روح الخطبتين أن زياداً جمع فى خطبته بين الشدة واللين وهذا الجمع إنما هو عنوان سياسته فى كل أيامه ، أما الحجاج فانه اقتصر على الشدة وحدها ، وما عرضت على ذهنى خطبته فى الكوفة إلا تراءت لى فى صاحبها أشياء غير بلاغته ، لقد انكشف لى بعد تقليب النظر فى هذه الخطبة السر فى توفيق الحجاج من أول يوم ولى فيه العراق ، فليس بالأمر الهين أن ينقاد الناس إليه هذا الانقياد ، ثم ينبسط سلطانه هذا الانبساط ، فكيف خضع أهل المسجد خضوعهم الذى عرفناه ، وكيف سكتوا سكوتهم الذى عهدناه ، لقد انتدب الحجاج ، لا بل قد ندب نفسه إلى أمر تهيبه شيوخ بنى أمية وخافوا خواتيمه ، أفليس بالأمر العجيب أن يخرج عبد الملك إلى أصحابه ويقول لهم ثلاث

مرات : ويلكم ! من للعراق ! فيصمت القوم ، و ينبرى الحجاج فيقول : والله أنا لها يا أمير المؤمنين ، فيقول له عبد الملك : أنت زنبورها ، ويكتب إليه عهده .

ليس هذا كله بالأمر اليسير ، فعلى أى شيء اعتمد الحجاج فى الإقدام على أمر أحجمت عنه مشيخة بنى أمية ، وما هى العدة التى أعدها وهيأها لمثل هذا الإقدام ، وهو لو هفا فيه أقل هفوة لذهبت هفوته بحياته و بسلطان بنى أمية فى العراق .

لقد اجتمعت له أسباب كثيرة مكنته من التوفيق فى سياسة العراق ، فى جملتها معرفته بطبائع الناس ، وتنويهه القوم ببلاغته وفورة شبابه ، وحيطته لأمره ، وأشياء غيرها اختص بها فى سياسة العراق لا مجال لذكرها فى مثل هذا المقام ، لأن الكلام على سر توفيقه من أول خطبة خطبها ، لما فى هذه الخطبة من الأسرار النفسية .

لقد قال الناس فى الحجاج بن يوسف وأبيه ما قالوا ، وأنشدوا شاهداً من الشعر على أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف ، ولما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد مااستخلف أمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : إنه كان

عبداً زَبَّاباً ، قنوَّر بن قنوَّر ، لا نسب له فى العرب .

على أن فيلسوف المؤرخين وأعنى به ابن خلدون ، تعرَّض فى مقدمته لنسب الحجاج وأبيه ، ولأمر تعليمهما فى الطائف ، فوضَّح هذا الأمر أكمل توضيح ، فقد نبه على أخطاء المؤرخين ، ومن جملتها ما نقلوه من أحوال الحجاج ، وأن أباه كان من المعلمين ، فذكر أن التعليم فى صدر الإسلام وفى صدر الدولتين ، الأموية والعباسية ، لم يكن فيه شىء من الغضاضة ، فقد كان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، تبليغاً للخير ، لا التماساً للمعاش ، إذ الكتاب إنما هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم ، والإسلام دينهم ، قاتلوا عليه وقتلوا ، واختصوا به من بين الأمم ، لم يقعد بهم عن هذا التعليم شىء من كبرهم وأنفتهم ، ويشهد بذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمون الناس حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين .

ولم يدخل التعليم فى جملة الصناعات والحرف إلا بعد استقرار الإسلام ، فاشتغل حينئذ أهل العصبية بالملك والسلطان ، وشمخت أنوف المترفين عن التصدى للتعليم ، فانتحله المستضعفون

من الناس ، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك :
والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ،
ومكانة ثقيف من عصبية العرب ومناهضة قريش فى الشرف
معلومة ، فلم يكن تعليمه القرآن للمعاش ، وإنما كان للأمور التى
وصفها ابن خلدون فى الكلام المتقدم .

وعلى هذا الوجه لم يبق شك فى أن التعليم لم يحط من قدر
الحجاج أو من مقادير أبيه وأخيه ، وكثيراً ما فخر الحجاج بأنه
ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، وإذا كنت قد
تبسطت فى هـذه القضية بعض التبسط فذلك لأننى أرى فى
ممارسة الحجاج لصناعة التعليم سرًّا من أسرار نجاح سياسته ،
فقد مكنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع والتغلغل إلى
بواطن النفوس وكشف الغطاء عن مواطن الترغيب والترهيب ،
وعن مواضع الغضب والرضى والطاعة والعصيان ، وعن الزمن
الذى تنفع فيه الشدة والزمن الذى ينفع فيه اللين فإن صلة المعلم
بطلابه تمهد له السبيل إلى النفوس البشرية فتصبح له ملكة
خاصة فى سياسة الناس ، وفى استمالتهم وتنفيرهم وفى استثارتهم
وتسكينهم وأمثال هذا كله ، وليس معنى كلامى أن كل معلم

يرزقه الله تعالى هذا الحظ من المعرفة ، ففى المعلمين مغفلون كما فى
كل طبقة من طبقات الناس، ولـكن رجلاً مثل الحجاج اختصه
الله بمثل ما اختصه به من فضل السياسة قد زاده التعليم سعة فى
هذا الفضل ، فلما ولى العراق وقذف فى مسجد الـكوفة بالخطبة
التى قذف بها ، وكأنها نار جهنم ، كان عالماً بطبائع الناس ،
واقفاً على المذاهب التى ترهبهم وتفزعهم ، ولولا معرفته هذه لما
جرؤ على مثل ما جرؤ عليه فى الـكوفة ، وأهل المسجد الذين
سمعوا هذه الخطبة لم يكن هواهم فى بنى مروان ، وما منهم رجل
جالس فى مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون من أهله ومواليه،
فلم يتحرك أحد منهم .

إلا أن التعليم لم يكن السبب الأوحد فى توفيق الحجاج ،
فإن بلاغة الحجاج كانت عاملاً من عوامل هذا التوفيق ، ولم
ينكشف تأثير الكلام فى الجماهير انكشافه فى عصرنا هذا ، فإن
أكثر رجال السياسة المبرزين فى سياستهم هم أمراء البيان ،
ومن لم يكتب له نصيب من هذه البلاغة قل حظه من التوفيق
فى السياسة ، والحجاج فى هذا الميدان فارس فى الرعيل الأول
من الفرسان ، فقد ذكروا عنه أنه إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ،

ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، ثم يتزيد فى الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد ، وقال فيه مالك بن دينار : ربما سمعت الحجاج يخطب ، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج ، ولست أشك فى أن شكله الشاذ كان له بعض التأثير الشاذ فى الجماعات فضلا عن بلاغته ، فقد كان أخيفش العينين ، متسلق الأجفان ، أصك الرجلين .

فأول خطبة خطبها فى الكوفة كان لها أبلغ أثر فى توفيقه ، ولقد تصرف فى خطبته هذه تصرف العارفين بأسرار التأثير ، فإن صعوده المنبر متلثما ، متنكباً قوسه ، ثم جلوسه واضعاً إبهامه على فيه ، ثم تكلمه رويداً ، ثم تزيده فى الكلام ، ثم زجرته ، كل هذا من الأمور التى ميّلت الأنظار إليه ، فالحجّاج ملك عيون الناس قبل الشروع فى الكلام ، وهذا باب من أبواب البراعة ، ولو خطب من فوره دون هذه الحركات كلها أضعف سلطانه على القلوب ، ولكنه أحب قبل كل شىء أن يمكّن العيون منه ، فلما تمكنت منه هذا التمكن ، وغص المسجد بأهله

حسر اللثام عن وجهه ، ثم قام ونحى العمامة عن رأسه ، ثم انبعث في الكلام وكان من أمره ما كان .

ولا ريب في أن الحجاج لما قذف بأوائل خطبته علم العلم كله أنه نوم أهل المسجد ، على تعبير عصرنا هذا ، والتنويم أسلوب من الأساليب النفيسة ، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم ، وعرف أنهم لايستطيعون أن يتصرفوا في شيء من هذه الإرادة ومن هذا الشعور ومن هذا التفكير ، فأخذ يلعب بهم كما يلعب الطفل بالتصاوير ، واستمر على طرازه من الشدة في الكلام والغلظة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد ، فكان القوم قيد إرادته وقيد إشارته ، يأمرهم فيأتمرون وينهاهم فينتهون ، وأكبر دليل على ذلك قوله لهم : يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ، فلما قال قوله هذا ، قال أهل المسجد كلهم : وعلى أمير المؤمنين السلام و رحمة الله و بركاته! ولم يشغب عليه شاغب .

وإذا أضفنا إلى بلاغة الحجاج قوة شبابه عرفنا أن هذا الشباب عامل آخر من عوامل توفيقه ، فإن الشيوخ يقيمون لجلائل الأمور أوزانها ، فلا يقتحمون في الأغلب من أحوالهم في

الذى يقتحم فيه الفتيان ، وحجة ذلك أن عبد الملك بن مروان
لما انتدب أصحابه إلى العراق تهيبوا الأمر وحذروه ، فإن دم
الشباب فى الإقدام على عظائم الأمور غير دم الشيوخ ، وقد كان
الحجاج فى أول ولايته العراق فى مقتبل العمر ، كان عمره ينيف
على ثلاثين سنة ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها ، عالما بأنه أمرُّ
الكنانة التى نثرها عبدالملك طعماً وأحدُّها سناناً وأشدُّها مكسراً ،
ومع هذا كله فقد أخذ بالحيطة فى أمره ، فلم يقدم العراق على
ماذكره بعض المؤلفين فى ثمانية رجال أو تسعة على النجائب ،
وإنما قدم الكوفة ومعه جيش ولكنه لما بلغ القادسية أمر
الجيوش أن يقيلوا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ،
فجلس عليه بغير خشب ولا وطاء ، وأخذ كتاب عبدالملك بيده ،
ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده ،
ولم يدخل بغداد ، كما قال بعضهم ، فإن بغداد من بناء المنصور ،
فلم تكن فى أيام الحجاج ، وعلى هذا لم يبلغ منه التهور أن يقدم
العراق فى ثمانية رجال أو تسعة ، وإنما ترك جيشه فى القادسية
وهى على أبواب الكوفة ، فإن شباب الحجاج لم يمنعه عن حيطة

الشيوخ ، فهو أعقل من أن يجرؤ على العراق دون الاستعانة بالجيش ، والعراق يومئذ جبل من نار !

وإذا كان زياد قد نجحت سياسته لجمعها بين الشدة واللين ، فإن الحجاج قد نجحت سياسته لانفرادها بالشدة وحدها ، ولا يخطرن ببال أحد أنى فى مقام أحسّن فيه الشدة أو أحرض عليها ، وإنما اضطررت إلى ذكرها لأنها عنوان سياسة الحجاج المبنية على علم النفس ، ولولا نصيبه من السياسة النفسية لما احتمله العراق عشرين سنة !

موسى بن نصير

لقد كانت لموسى بن نصير شهرة فى التاريخ تكاد تكون منقطعة النظير ، ولكن عوامل هذه الشهرة لا تزال غامضة ، فمن أية النواحى فهم روح السياسة النفسية ، كان عقدُ عبد العزيز بن مروان لموسى بن نصير على إفريقية فاتحة خير فى تاريخ العرب ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قدم إفريقية وحولها مخوف، بحيث لايقدر المسلمون أن يبرزوا فى العيدين لقرب العدو منهم ، وكانت جبالها كلها محاربة لا تُرَام ، وكذلك عامّة السهل، فما ترك القلاع والجبال الممتنعة حتى وضع الله أرفعها وذلّ أمنعها ، وفتحها على المسلمين . ومن أراد أن يعرف البلاد التى فتحها ، ومقادير الغنائم التى غنمها المسلمون من اللآلىء والجواهر واليواقيت والفضة والذهب والزبرجد فليرجع إلى كتب التاريخ.

ولمّا فرغ من إفريقية وجّه مولاه طارقاً إلى الأندلس ثم لحق به، ففتح المدائن يميناً وشمالاً ، وقد أظهره الله ونصره وفتح على

يديه ما لم يفتح على يدى أحد ، ودانت له الأندلس ، وما هزمت له راية ولا فض له جمع ولا نكب المسلمون معه نكبة حتى مات ، ولو انقاد الناس له لقادهم إلى رومية على حسب ما قال ، فقد كان مبارك الغزوة فى سبيل الله بعيد الأثر ، طويل الجهاد

ولكن ما السر فى هذا التوفيق العظيم ؟ لا شك فى أن فى ذلك عوامل كثيرة ، سأل سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير عمّا كان يفزع إليه فى حرب عدوه ؟ قال : التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين ، قال له سليمان : هل كنت تمتنع فى الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ قال : كل هذا لم أفعله ، قال : فما كنت تفعل ، قال : كنت أنزل السهل ، وأستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه فى النصر .

قد يكون هذا كله سبباً من أسباب توفيق موسى بن نصير ، ولكنى أرى فى القسم الأخير من هذا الخبر السبب الأهم ، قال له سليمان : فمن كان من العرب فرسانك ؟ قال : حِمْيَر ، قال : فأى الأمم فى تلك البلاد كانوا أشد قتالا ؟ قال : إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم ، قال له : أخبرنى عن الروم ؟ قال :

أسود فى حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء فى مواكبهم ، إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل فى أجبال ، لا يرون عاراً فى هزيمة تكون لهم منجاة ، قال : فأخبرنى عن البربر ، قال : هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسية وسماحةً وباديةً ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غُدُر ، قال : فأخبرنى عن الأشبان ، قال : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون ، قال : فأخبرنى عن الإفرنج ، قال : هناك يا أمير المؤمنين العدد والعُدّة والجلد والشدّة ، وبين ذلك أمم كثير ، ومنهم العزيز ومنهم الذليل ، وكل قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ومنهم المحارب المقهور والعزيز المبذوخ .

* * *

أجل ، إنى أرى فى هذا كله أعظم الأسباب فى توفيق موسى بن نصير ، لقد دخل إفريقية والأندلس وهو لا علم له بأخلاق أهلها وطبائعهم ، فأقام بإفريقية ست عشرة سنة على ما رواه بعض المؤرخين وأقام فى الأندلس عشرين شهراً ، فاستطاع فى خلال هذه المدة الطويلة أن يخبر أخلاق الأمم التى كان يحاربها ويدعوها إلى طاعة أمير المؤمنين ، وأن يبلو طبائعهم ، حتى عرف

شجاعة الشجعان منهم وجبن الجبناء : وكشف عن عيوبهم وفضائلهم ، واهتدى إلى مواطن الضعف والقوة فى أخلاقهم ، فلقى كل أمة بما يفشا كلها ، وزحف اليها بما يناسبها ، ولعمرى إن هذه المعرفة الخلقية هى التى أعانته على فتح إفريقية أولاً والأندلس ثانياً ، وليس باليسير أن يظفر بعدوّ فيه عَدد وعُدة وفيه جَلد وشدة وفيه نجدة وصبر ، ولـكنه قبل أن يعمل السيف فى هذا العدو أعمل فيه الفكر ، فاستعان بما هداه اليه هذا الفكر من الـكشف عن أخلاق العدو و إبراز بواطنه ، وأعتقد أن موسى ابن نصير إذا نجحت سياسته فى إفريقية والأندلس فإن لمعرفته النفسية بأخلاق أهل البلاد التى افتتحها سراً عظيما وأثراً بليغاً.

وكما كان حاذقاً فى معرفة أخلاق الامم فقد كان حاذقاً فى معرفة أخلاق الأفراد ، فقد تجهز سليمان بن عبد الملك للحج سنة ثمان وتسعين ، وأمر موسى بن نصير بالشخوص إلى الحج معه ، فذكر له موسى أنه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة جهازاً و بجمرة من حجره وجائزة ، فحج سليمان وحج معه موسى ، فبينما هو يسير يوماً إذ دعا بموسى فناداه خالد بن الريّان وكان موسى يساير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه ، ثم دعا به

سليمان فناداه خالد أيضاً ، فلم يلتفت إليه ؛ فقال له الرجل غفر الله لك ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ إنى أخافه وأخاف أن يغضب ! فقال موسى : ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد ، فأمّا هذا فإنه يرضيه ما يرضى الصبي ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك ، ثم تقدم موسى حتى لحق ولصق بسليمان ، فقال له سليمان : أين كنت يا ابن نصير ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أين دوابنا من دوابّك ! إنى منذ دعانى أمير المؤمنين لفى كدٍّ حتى لحقت أمير المؤمنين ، فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه ، فسايره وحادثه ثم انصرف عنه ، فلحق الرجل به ، فقال له موسى : كيف رأيت ؟ فقال الرجل : أنت أعلم به !

ليس بكثير على رجل مثل موسى بن نصير أن يعرف أخلاق سليمان بن عبد الملك ، وقد عرف أخلاق أمم بحذافيرها ، إن عملاً مثل العمل الذى تقدم ذكره كان كافياً أن يعود بسليمان إلى الحقد على موسى بن نصير ؛ فإن سليمان بن عبد الملك لاينسى إساءة موسى إليه ، وأخباره مع موسى مشهورة ، وكذلك مع الحجّاج ، فإنه لما استخلف بعد أخيه الوليد كان أحنق الناس على الحجاج وعلى موسى بن نصير ، وكان حنقه عليهما لأمر

يطول ذكره ، أما الحجاج فقد أدركته الوفاة قبل خلافته وأما موسى بن نصير فقد همّ بصلبه وشتمه وخوّفه وتواعده ثم قاضاه على أموال قبضها سليمان بن عبد الملك وخلّى سبيله ، ثم رضى عنه وندم على يمين كان أقسم بها أن لا يوليه شيئاً ، وكان يقول : إن مثل موسى لا يستغنى عنه . والخلاصة أن موسى بن نصير خبر أخلاق سليمان بن عبد الملك أتم خبرة ، وقد نجّته هذه الخبرة من تجديد الحقد عليه أو قتله ، كما نجته أمواله فى المرة الأولى من هذا القتل ، فإن كلمة واحدة صبّها فى موضعها أخرجت سليمان بن عبد الملك من طور إلى طور ، أخرجته من الغضب إلى الرضا ، فليس بقليل أن يدعو أمير المؤمنين برجل من رجاله مرتين وأن لا يلتفت هذا الرجل إلى دعوته ، ولكن موسى بن نصير عرف كيف يمدح سليمان بن عبد الملك . عرف مواطن الضعف فيه ، فجاءه من هذا المواطن ، فإن كلمته : أين دوابّنا من دوابّك ، كافية أن تجعل سليمان بن عبد الملك يشعر بأنه الخليفة و بأن صاحب هذه الكلمة دونه منزلةً وجاهاً ، وشعوره هذا هو الذى أخرجه من الغضب وردّه إلى الرضا ، ولكن المهارة فى أن يعرف موسى بن نصير من خليفته هذا الخلق ، وأن يعالجه من هذه الناحية إذا وقع فى ورطة معه

آخر خلفاء بنى أمية

لئن افتتحت خلافة بنى أمية بجماعة تمكنوا من بناء سياستهم على أصول علم النفس ، أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، لقد اختتمت بخليفة غلط غلطة نفسية كان فيها ضياع حياته وحياة أهله، ولو لم يغلطها لعاد إليه ملكه، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم .

ما هذه الغلطة النفسية ؟

روى المسعودى فى تأريخه أن إسمعيل بن عبد الله القشيرى قال : دعانى مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حرّان ، فقال : يا أبا هاشم ! وما كان يكنينى قبلها ، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ولا مخبأ بعد بؤس ، فما الرأى ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ! علامَ أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بموالىّ ومن تبعنى من الناس حتى أقطع الدرب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب صاحبها ، وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة

من ملوك الأعاجم وليس هذا عاراً بالملوك ، فلا يزال يأتيني الخائف والهارب والطامع ، فيكثر من معى ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمرى وينصرنى على عدوى ، فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأى ، ورأيت آثاره فى قومى من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت : أعيذك بالله ياأمير المؤمنين من هذا الرأى ، تحكم أهل الشرك فى بناتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدرى ما تأتى به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية، ولا يحدث إلا الخير ، ضاع من بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر الشأم جنداً ،فإنك فى كنف وعزة ، ولك فى كل جند صنائع يسيرون معك حتى تأتى مصر ، فإنها أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً ، ثم الشأم أمامك ، وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية، قال : صدقت ! وأستخير الله ، فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن جندة السلمى ، وكان أخاه من الرضاعة والكوثر بن الأسود الغنوى ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببلاد قنسرين والحاضر أوقعت تنوخ

القاطنة بقنسرين بساقته ووثب به أهل حمص، وسار إلى دمشق فوثب به الحريث بن عبد الرحمن الحرشي ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون جميعاً ، ثم مر بفلسطين فوثب الحكيم بن صنعان بن روح بن زنباع ، لما رأوا من إدبار الأمر عنه ، وعلم مروان أن إسمعيل بن عبدالله القشيرى قد غشه فى الرأى ، ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرّط فى مشورته إياه إذ شاور رجلاً من قحطان موتوراً متعصباً من قومه على أضدادهم من نزار ، وأن الرأى الذى هم بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبة ملكها إلى أن يرتئى فى أمره كان أولى.

إنى أنظر إلى هذا الخبر من ناحية الغلطة النفسية فيه لا غير ، ولا أنظر إليه من وجه الصواب أو الخطأ فى لجوء مروان إلى بلاد الروم ، فإن استشارة مروان لرجل موتور ، واستعداده للأخذ برأيه غلطة نفسية ، وفضلا عن ذلك فقد كان يجب عليه أن يعرف أن نظرة جماعته إليه والأمر مقبل عليه تختلف عن نظرتهم إليه والأمر مدبر عنه ، فالناس عادة ينفضون من حول صاحب سلطان إذا ضعف سلطانه ، وربما كانوا حرباً عليه ، وقد فطن مروان إلى هذه الغلطة ، ولكن بعد حين ، على أنه كان يديم

قراءة سير الملوك وأخبارها فى حروبها من الفرس وغيرهم من ملوك الأمم ، و بعض المؤرخين كانوا يرون أنه أحزم بنى مروان وأنجدهم وأبلغهم ، ولكنه ولى الخلافة والأمر مدبر ، فقد جاء أجله ، وأجل بنى أمية فى الشأم ، حتى قتل فى مصر وهبّت دولة بنى العباس .

ومن هذا القبيل قتل بنى العباس لرجال بنى أمية فى الشأم فقد غلط بقايا بنى أمية الغلطة نفسها التى غلطها آخر خلفائهم ذكر ابن قتيبة أن أبا العباس ولى عمه عبد الله بن على الذى يقال له السفاح [1] الشأم ، وأمره أن يسكن فلسطين ، وأن يجد السير نحوها ، وهنأه بما أصاب من أموال بنى أمية ، وكتب إلى صالح بن على أن يلحق بمصر والياً عليها ، فقدم السفاح فلسطين ، وتقدم صالح إلى مصر ، فأتاها بعد قتل مروان بيومين ، و إن السفاح بعث إلى بنى أمية وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بهم وأمره بصلتهم و إلحاقهم فى ديوانه ورد أموالهم عليهم ، فقدم عليه من أكابر بنى أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلا ،

---

(١) لقب السفاح قد جعل فى بعض كتب التأريخ للخليفة نفسه أبى العباس عبد الله بن محمد .

وكان فيهم عبد الواحدبن سليمان بن عبد الملك ، وأبان بن معاوية بن هشام، وعبد الرحمن بن معاوية، وغيرهم من صناديد بنى أمية ، فأما عبد الرحمن بن معاوية فلقيه رجل كان صنع به برًّا وأسداه خيراً وأولاه جميلاً فقال له : أطعنى اليوم فى كلمة ، ثم اعصنى إلى يوم القيامة ، فقال له عبد الرحمن : وما أطيعك فيه اليوم ؟ فقال له الرجل : أدرك موضع سلطانك وقاعدتك المغرب ، النجا ! النجا ! فإن هذا غدر من السفاح ، يريد قتل من بقى من بنى أمية ، فقال عبد الرحمن : ويحك إنه كتاب أبى العباس قدم عليه يأمره فيه بصلتنا ورد أموالنا إلينا وإلحاقنا بالعطاء الكامل والرزق الوافر ، فقال له الرجل : ويحك أتنفل ، والله لا يستقر ملك بنى العباس ولا يستولون على سلطان ومنكم عين تطرف ! فقال له عبد الرحمن : ما أنا بالذى يطيعك فى هذا ، فقال الرجل : أفتأذن لى أن أنظر إلى ما تحت ظهرك مكشوفاً ؟ فقال له : وما تريد بهذا ؟ فقال له: أنت والله صاحب الأمر بالأندلس، فاكشف لى ، فكشف عبد الرحمن عن ظهره ، فنظر فإذا العلامة التى كانت فى ظهره قد وجدت فى كتب الحدثان ، وكانت العلامة خالاً أسود عظيماً مرتفعاً على الظهر، هابطاً ، فلما نظر إليه الرجل

قال له : النجا ! النجا ! والهرب ! الهرب ! فإنك والله صاحب الأمر ، فاخرج ، فأنا معك ، ومالى لك ، ولى عشرون ألف دينار مصرورة كنت أعددتها لهذا الوقت . . . إلى آخر ما جاء فى هذا الحديث ، ثم ولّى عبد الرحمن ذاهباً وخرج لا يدرى متى خرج ، فلحق بالمغرب .

وأقبل القوم من بنى أمية ، وقد أعد لهم السفاح مجلساً فيه أضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والأجرزة ، فأخرجهم عليهم ، فقتلهم وأخذ أموالهم، واستعفى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان عبد الواحد قد بذ العابدين فى زمانه وسبق المجتهدين فى عصره، فركب السفاح إلى أموال عبد الواحد وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالاً معجبة تطرد فيها المياه والعيون ، فأمره السفاح أن يصيرها إليه ، فأبى عليه واختفى منه ، فأخذ رجالاً من أهله ، فتواعدهم السفاح وأمر بحبسهم حتى دلوه عليه ، فلما قبضه أمر بقتله ، ثم استقصى ماله ، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين، وكان أبو العباس يعرفه قبل ذلك، وكان عبد الواحد أفضل قرشى كان فى زمانه عبادة وفضلا ، فقال أبو العباس : رحم الله عبد الواحد ! أما والله كان يقاتل المقاتلة ولا ممن يشار

إليه بفاحشة ، وماقتلته الا أمواله، ولولا أن السفاح عمى وذمامه ورعاية حقه على واجب لأقدت منه، ولكن الله طالبه ، وقد كنت أعرف عبد الواحد برًّا تقياً صواماً قواماً ، ثم كتب إلى عمه السفاح أن لا يقتل أحداً من بنى أمية حتى يعلم به أمير المؤمنين ، فكان هذا أول ما نقم أبو العباس على عمه السفاح .

فالذى يهمنا من الخبر كله الغلطة النفسية التى غلطها رجال بنى أمية فى أول دولة بنى العباس ، فقد أصاب الرجل الذى نصح لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام لما قال له : ويحك ! أتغفل ، والله لا يستقر ملك بنى العباس ولا يستولون على سلطان ومنكم عين تطرف ! هذا هو كلام الذين يعرفون أسرار النفوس ويفقهون ما تنطوى عليه ، فخطأ صناديد بنى أمية الذين قتلهم عبد الله بن على كان فى انخداعهم بأقوال رجال من بنى العباس موتورين ، وهذا الانخداع هو الذى أودى بحياتهم كما أودى انخداع مثله بحياة آخر خلفائهم فى الشام ، وأشباه هذه الانخداعات إنما هى عواقب غلطات نفسية فى السياسة .

سياسة المـال

تبين لنا فى كل ما تقـدم من الفصول أن كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم ساسوا الناس من ناحيـة الاتصال بنفوسهم والوقوف على أسرارها ، وقد أحببت أن أبين فى هذا الفصل أن كثيراً منهم ساسوا الخلق من ناحية تأثير المـال فى النفوس .

يعلم كل واحد منا أن قضية المال فى سياسة الحكومات من أدق القضايا . إنها مطمح أنظار الشعب ، وموضوع أحاديثـه فى المجالس ، ومجال خواطره ، ولا شىء يحط من مقـادير الحكومات فى نفوس الأمة ، ويذهب من هيبتها فى العيون ، ويعجل فى القضـاء على سلطانها ، بمثـل الطمع فى مال الشعب واستلاب هذا المال وتبديده . هذه أمور نفسية فطن إليها أهل الاستقامة من عمال المسلمين وأمرائهم وخلفائهم ، فأكثروا من الكلام على المال فى خطبهم ، وأفاضوا فى التعريض به ، فنجدت

سياستهم ورشدت أعمالهم ، لأنها مبنية على فرط علمهم بروح الأفراد والجماعات من جهة المال .

من خطب أبى بكر رضى الله عنه خطبة ورد فيها ما يلى :

« أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبىّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً » .

عرف أبو بكر اهتمام الناس بالمال ، فتوسع فى العلم بصرفه فى وجوهه، فقسمه فى أزواج رسول الله ، ثم فى المهاجرين الأولين، ثم فى الأنصار ، فلم يبدد مال المسلمين بحسب الهوى ، وإنما أنفقه فى أحسن الوجوه وأتمها، حتى استقامت له طاعة الناس، ولم يكن لألسنتهم سلطان عليه ، ومن حديث ابن وهب عن الليث أن أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يجرى عليه من الفئ درهما إلا أنه اقترض منه مالاً فلما حضرته الوفاة أمر عائشة برده .

وجاء بعده عمر بن الخطاب فسار فى الرعية من ناحية المال السيرة نفسها ، فقال فى جملة خطبه :

« إنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم

ليضربوا ظهوركم و يأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شيء من ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفسى بيده لأقصنكم منه » .

لقد علم سيدنا عمر بمنزلة المال فى نفوس الأمة فاستمال الناس إليه بقوله : ولا أبعثهم ليأخذوا أموالكم ، إنه يعرف المعرفة كلها أن أخذ العمال لأموال الشعب سبيل إلى خروج الشعب على رجال الحكومة ، ثم إلى موت حكومتهم .

كان يجري عليه درهمين كل يوم ، وكان خشن الملبس ، يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه، وكان أكثر ركابه الإبل ورحله مشدودة بالليف، مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعه من المال ، وقد اتبعه عماله فى هذه الشيم والأخلاق ، وما أظن أن بى حاجة إلى التنبيه على مصادرته لعماله على أموالهم فى بعض الأحيان ، فقد كان فريق منهم تظهر عليهم آثار النعمة ورزقهم لا يهيئ لهم مثل هذه النعمة ، فيشك عمر فى سيرتهم ويحاسبهم على أموالهم، وفى كتب التاريخ كثير من الشواهد على ذلك ، ولم أذكر ما ذكرت إلا للإشارة إلى زهده فى بيت المال وحرصه على مال المسلمين . وهذا ما حببه إلى الناس، وجعل سياسته فيهم رشيدة ، فضلا عن صفاته الأخرى

التى تخرج عن موضوعى فى هذا الكتاب ، ولما مات لم ير المسلمون يوما أكثر نشيجاً من يومه !

أما عثمان بن عفان فقد قيلت فى سياسته أقوال مختلفة ، ولكنى فى هذا المقام لا أتعرض إلا لناحية واحدة من هذه السياسة ، وهى ناحية المال ، فلست فى موضوع التعصب له أو التعصب عليه ، ولكنى أرجع إلى ما ذكره بعض المؤرخين فى هذا الباب ، وأنظر فى الذى دافع به عثمان عن نفسه فى هذا المعنى .

قال ابن قتيبة فى كتاب الإمامة والسياسة : ذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه السلام ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة ، داراً لنائلة ، وداراً لعائشة ، وغيرهما من أهله و بناته ، و بنيان مروان القصور بذى خشب[1] ، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله .

(١) موضع باليمن .

وحدث البلاذرى فى كلامه على ما أنكروا من سيرة عثمان أحاديث كثيرة أسندها إلى أصحابها .

منها : وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقية وأعطى أقاربه المال وتأول فى ذلك الصلة التى أمر الله بها واتخذ الأموال واقترض من بيت المال مالاً وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما وإنى آخذه فأصل به رحمى ، فأنكر الناس ذلك عليه.

ومنها : أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة ، فأنكر ذلك من فعله وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق .

ومنها : كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخا عثمان من الرضاعة وعامله على المغرب ، فغزا إفريقية سنة سبع وعشرين فافتتحها ، وكان معه مروان بن الحكم ، فابتاع خمس الغنيمة بمائة ألف أو مائتى ألف دينار ، فكلم عثمان فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان .

ومنها : لما بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه، وكان المِسْوَر فيمن دعا ، فقال مروان وهو يحدثهم : والله ما أنفقت فى دارى هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه ، فقال المسور : لو

أكلت طعامك وسكت لكان خيراً لك ، لقد غزوت معنا إفريقية وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفنا ثقلاً ، فأعطاك ابن عفان خمس إفريقية ، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين .

ومنها : كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له حين أتاه بها .

ومنها : لما قدم الوليد بن العقبة الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً ، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ، ثم ترد ما تأخذ ، فأقرضه عبد الله بن مسعود ما سأله ، ثم إنه اقتضاه إياه ، فكتب الوليد فى ذلك إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال ، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أنى خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لى فى ذلك، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال .

ومنها : أنكر على عثمان مع ما أنكر أن حمى الحمى، وأن أعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، من ألف ألف درهم حملها أبو موسى الأشعرى ، وقال له : هذا حقك !

ومنها : كان فى بيت المـال بالمدينة سفط فيه حلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحلّى به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه فى ذلك ، وكلموه بكلام شديد حتى أغضبوه .

ولما ورد المصريون المدينة وأحاطوا هم وغيرهم بدار عثمان ، أشرف عليهم عثمان فقال : أيها الناس ! ما الذى نقمتم علىّ ، فإنى معتبكم ونازل عند محبتكم ، فجعلوا يذكرون له أمراً أمراً مما أنكروا عليه ، فكان يرد على كل أمر ، فلما ذكروا له مال الله الذى أعطاه قرابته قال : اكتبوا به علىّ للمسلمين صكا لأعجل منه ماقدرت على تعجيله وأسعى فى باقيه .

من هذا يتبين لنا إقراره باعطائه قرابته المال ، فقد رد على كل أمر ، ماخلا أمر المـال فإنه اعترف به .

ومما فتح العيون عليه أن الناس فى عصر عمر بن الخطاب كانوا على كثير من خشونة الحياة اقتداء بخليفتهم ، أما عثمان بن عفان فقد مال إلى النعيم ، فبنى داره فى المدينة وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالا وجناناً وعيوناً بالمدينة ، وخلف خيلاً كثيراً وإبلا ، وكان عند خازنه من المال يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم

وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار .

وقد سلك عماله وكثيرمن أهل عصره طريقته ،وتأسوا به فى فعله ، فاقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام فقد بنى داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وخططا بالأمصار المذكورة .

ومنهم طلحة بن عبيد الله التيمى ، فقد ابتنى داره بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة أكثر مما ذكر ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج

ومنهم عبد الرحمن بن عوف الزهرى ،فقد ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً .

ومنهم سعد بن أبى وقاص ،فقد بنى داره بالعقيق ورفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف

من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

وابتنى المقداد داره فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار.

وختم المسعودى هذا الفصل بما يلى : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيام عثمان، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة ، وطريقة بينة .

ولقد ذكرت أسماء جماعة من أصحاب عثمان الذين اقتنوا الضياع والدور ، وما أظن أن القارئ تهمه هذه الأسماء ، ولكنه إذا أراد أن يعرف تأثير هذا الاقتناء فى أهل العصر الذى عاش فيه عثمان وجب عليه أن يضع نفسه موضع أحد أهل ذلك العصر ، كيف تكون حاله إذا كان فى زمن رأى فيه رجال حكومته وأصحابهم وذويهم يقتنون الضياع ويبنون القصور ويكنزون الأموال ، ومعظم أهل الزمن يعيشون فى ضيق ! إذا وضع القارئ نفسه هـذا الموضع هان عليه حينئذ فهم أسرار النقمة

على عثمان ، فإن فهمنا للماضى يزداد بقياسه إلى الحاضر ، فأكثر مشاكل الماضى مشابهة لمشاكل الحاضر .

أجل ، لا يهمنا من غنى العمال الذين ذكرتهم شيء ، فسواء علينا فقرهم وغناهم ، ونعيمهم وخشونتهم ، وإنما ننظر إلى هذا الغنى والتوسع فى النفقة والبذخ من ناحية تأثيره النفسى فى الأمة، فالناس يسوء عادة ظنهم برجال الحكومة الذين هم على هذه الأخلاق ، ويبسطون الألسن فيهم فى الحق والباطل ، ولا سيما إذا كانت الأمة فى شيء من ضنك الحياة فإن نقمتها على رجال الحكومة فى مثل هذه الحال أشد ، وحقدها عليهم أعظم ، وقد يضعف المنطق فى شبه هذه الأحوال ، فتكثر التهم ، ويقل التمحيص ، ويشتد الغلو ، ولكن فى هذا كله أمراً واقعاً وهو مظاهر البذخ والإسراف والتبذير ، وهذه المظاهر هى التى تؤثر فى عيون الناس وقلوبهم، وتولد فى نفوسهم النقمة والحقد، وتحملهم على الوثوب برجال الحكومات والثورة عليهم.

إنى أعتقد أن فى بذخ جماعة عثمان واقتنائهم الضياع والدور عاملا من أقوى عوامل النقمة عليه ، ولقد ذهب المؤرخون فى مقتله كل مذهب ، فمنهم من رأى أن السياسة التى جرى عليها

فى استعمال أقاربه وأهل بيته كانت السبب فى خاتمته الأليمة ، ومنهم من رأى أن هذا المقتل حرّض عليه جماعة يطمعون فى الخلافة ، وكيف كان الأمر فقد كانت سياسته المالية باباً للفتنة ولولاها لما استطاعوا فتح هذا الباب ، أو كانوا يستطيعون فتحه من ناحية ثانية يفتشون عنها ، وعلى كل حال فقد كانت هذه السياسة غلطة نفسية، فأنا إذا تكلمت عليها فإنى أتكلم عليها من ناحية هذه الغلطة لا غير ، فما هي نتيجة سياسة من هذا الطرز إنها نتيجة أليمة ، محزنة ، ولكنها بنت الطبيعة ، لقد قتل سيدنا عثمان بأساليب لم يكن فيها شيء من الإنسانية ، فلا شفقة ولا رحمة ، لم تشفع له صحبة مع النبى ، ولا شفع له تكريم النبى إياه ، ولا طعنه فى السن ، ولا فرط تقواه ، ولا شيخوخته الصالحة ، ولا مصحفه بين ركبتيه ، فالناس إذا ثاروا على أمر من الأمور نظروا إلى مساوئ هذا الأمر ، فلا يروعهم عن شدتهم شيء من الدين والشفقة والرحمة .

***

ولقد جاء بعد سيدنا عثمان خلفاء من بنى أمية أدركوا تأثير المال فى الرعية، وفهموا أسرار سياسته ، فكان فهمهم سر نجاحهم

منهم هشام بن عبد الملك ، وسأفرد له باباً خاصاً أختم به هذا الكتاب ، ومنهم يزيد بن الوليد ، فقد كان يزيد عالماً بروح الرعية فى هذه السبيل ، فإنه لما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الأسباب التى من أجلها خرج على ابن عمه ثم قال :

« أيها الناس إن لكم على أن لا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذى يليه مما هو أحوج إليه منه » .

جوهر هذا الكلام الواضح معرفة أصحابه بما يستثير جماهير الناس ، والدخول على هذه الجماهير من الباب الذى يرضيها ، فقد كان يزيد بن الوليد يعلم أن الناس ناقمون على تباهى من قبله بقصورهم ، وعلى كنزهم المال وإعطائه الزوج والولد ، وكان يسمع أحاديثهم فى هذه الموضوعات ، لأن حواس الأمة بمجامعها يقظة متنبهة فى مثل هذه الحال ، فانتفع يزيد بهذه النقمة ، وخرج على ابن عمه ، وتولى الأمر بسياسة مناقضة لسياسة من قبله ، فقد علم

أن لا شيء يغضب الجماعات مثل كنز رجال الحكومة للمال وإعطائه الزوج والولد والأهل والأصحاب ، ولا شيء يخوضون فى ذكرهم فى مجالسهم الخاصة والعامة مثل نهب الحكومات للمال ، فإن سياسة من هذا الشكل تقضى على الحكومة وعلى الشعب فى وقت واحد ، فالحكومة التى يكون همها الأكبر سلب المال تتفتح عليها العيون فلا تنجو من انبساط الألسن فيها ، وقد تجر سياسة من هذا النوع إلى شيء أقطع من انطلاق الألسن .

شعر يزيد بن الوليد بهذا الأمر الدقيق فأخذ على نفسه فى خطبته العهود والمواثيق أن لا يقع فيه ، ولو دققنا فى آخر جملة من كلامه لانكشفت لنا معرفته ببواطن الجماعات الانكشاف كله ، فإن قوله : ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه ، منه دليل واضح على تغلغله إلى أعماق النفوس ، فإن نقمة الجماهير على رجال الحكومة تظهر فى خلال نقل هؤلاء مال بلدهم إلى بلد آخر وهم فى حاجة اليه ، والمال فى هذا المقام يحتوى على كل ما ملكه الإنسان من كل

شيء ، فقد عرف يزيد بن الوليد مواطن الغضب والرضا فى نفوس الأمة ، فدخل على هذه النفوس من مواطن الرضا وتجنب مواطن الغضب ، وهذا روح السياسة .

هذه شواهد يسيرة على علم بعض خلفاء المسلمين بما يغضب الأمة ويرضيها فى سياسة المال ، وإفاضة هؤلاء الخلفاء فى كلام مثل الكلام الذى تقدم برهان على معرفتهم بالمواضع الهائجة المائجة فى أعصاب الناس .

هشام بن عبد الملك

رأينا فى الفصل المتقدم كيف كانت عواقب سياسة الذين أسرفوا فى النفقات وبددوا بيت مال المسلمين ، والبخل فى السياسة عواقبه قريبة من عواقب التبذير ، ومن الخلفاء طائفة سلكت مسلكا وسطاً ، وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك ، فحمدوا عواقب سياستهم الرشيدة المتصلة بروح الجماهير .

ذكر فريق من المؤرخين أشياء كثيرة عن أخلاق هشام بن عبد الملك ، فقد أشار ابن قتيبة إلى محاسنه ، فلم يغفل عن عظم قدره وانقياد البلاد إلى سلطانه ، وقربه من الضعفاء واهتمامه بالإصلاح وتهيب الناس له ، ورده للمظالم وأخذه على يد الظالم ، وإدنائه للضعفاء والنساء واليتامى ، وإقصائه لأهل القوة ، وحتى لربما أتت عليه تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر فى شىء ولا يأتيه أحد فى خصومة لاستغناء الناس عن المطالب والتخوف من سطواته وعقوباته ، فقد وسع البلاد أمنه وأشعرهم عدله ،

وصارت البلاد المتنائية الشاسعة كدار واحدة ترجع إلى حاكم يرقبه الناس فى المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه ، وقد تمكن بفضل جواسيسه من معرفة أحوال ولاته وأعمالهم وأعمال الأخيار والأشرار ، بحيث لا يكون خبر ولا تحدث قصة من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وينظر فيها هشام ، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرت بهم وأعفاها وأرجاها .

كان المنصور فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام فى أفعاله ، لكثرة كشفه عن أخبار هشام وسيره ، وكان يقول : رجل بنى أمية هشام .

أرانى قد أطلت فى تلخيص أمور عن هشام تكاد تكون خارجة عن موضوعى ، فأنا لا أتعرض فى هذا الفصل إلا لسياسة المال وحدها ، ولكنى لخصت ما لخصت حتى يعرف القارىء هذا التناسق العجيب فى نواحى سياسة هشام ، ولا أقول إن اتقانه لسياسة المال هو الذى جر إلى إتقانه لكل أمور السياسة ، ولكنى أقول إن هذا الرجل العظيم كانت سياسته حسنة الانسجام فى جميع أشكالها ، ومن هذه الأشكال سياسته المال . ولا ريب فى أن خليفة تدوم خلافته عشرين سنة على الصفات التى أشار

إليها ابن قتيبة وغيره من رجال التاريخ لجدير بالبحث عن جوهر سياسته وسر نجاحها ، ولـكن المرء يحار فى هذا الجوهر وهذا السر ، إلى أى شىء يرد عوامل النجاح . ولعل فى القصة التى أنقلها عن العقد الفريد توضيحاً لأسباب نجاح سياسة هشام فى قضايا المال ، وهو الموضوع الذى أحبس عليه البحث فى هـذا الفصـل .

***

وفد عليه أهل الحجاز وكان شباب الـكتّاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، فتكلم محمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى ، وكان أعظم القوم قدراً وأكبرهم سناً فقال أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك ماقالت وأكثرت وأطنبت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى خطيبهم فضلك، و إن أذنت فى القول قلت ، قال : قل وأوجز ، قال : تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى ، إن لى حوائج أفأذكرها؟ قال : هاتها قال : كبر سنى، ونال الدهر منى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى و ينفى فقرى فعل ، قال : وما الذى ينفى فقرك و يجبر

كسرك ؟ قال : ألف دينار وألف دينار وألف دينار ، قال : فأطرق هشام طويلا ثم قال : يا ابن أبي الجهم ، بيت المال لا يحتمل ما ذكرت ، ثم قال له : هيه ، قال : ما هيه ! أما والله إن الأمر لو إلى أحد ! ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تعطنا فحقنا أديت وإن تمنعنا فنسأل الذى بيده ما حويت يا أمير المؤمنين ! إن الله جعل العطاء محبة والمنع مبغضة ، والله لأن أحبك أحب إلىّ من أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها ديناً فدحنى قضاؤه وقد عنانى حمله وأضر بى أهله ، قال : فلا بأس ، تنفس كربة وتؤدى أمانة ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوج بها من بلغ من ولدى ، قال : نعم المسلك سلكت ، أغضضت بصراً وأعففت ذكراً ورفعت نسلا ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أشترى بها أرضاً يعيش بها ولدى وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بقى ، قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت ، قال: فالمحمود الله على ذلك وخرج ، فأتبعه هشام بصره وقال : إذا كان القرشى فليكن مثل هذا ، ما رأيت رجلا أوجز فى مقال ولا أبلغ فى بيان منه ، ثم قال : أما والله ؛ إنا لنعرف الحق إذا نزل وننكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيراً ولا نمنع تقتيراً ،

وما نحن إلا خزان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإذا أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ،ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلا ،ولا رددنا سائلا ، ونسأل الذى بيده ما استحفظنا أن يجريه على أيدينا ؛ فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بعباده خبير بصير .

إذا تدبرنا هـذه القصة استطعنا أن ندرك سياسة هشام بن عبد الملك فى تدبير المـال . يدلنا الشق الأول منها على أنه يمنع ثم يعطى ، ولـكنه لايعطى إلا إذا رأى سبيلا إلى العطاء ، لقد منع عن ابن أبى الجهم المال . ولـكنه لما تبين له أن هذا المال سيصرف فى وجهه عاد إلى العطاء ، ويدلنا الشق الأخير من القصة على توضيح هشام بن عبد الملك لسياسته فى تدبير المـال ، إنه يكره الإسراف والبخل ، فلا يعطى تبذيراً ولا يمنع تقتيراً ، وهذه العبارة على اختصارها تتضمن أبلغ إشارة إلى طرق إنفاقه للمال ، إنه يكره الإسراف ، ففى تاريخ العرب أمور كثيرة تدل على أن طائفة من العمال والخلفاء أخفقت سياستهم لأنهم أسرفوا فى مال المسلمين ، وإنه يكره البخل ، ففى هذا التاريخ نفسه أمور غير قليلة تبين لنا أن بعض العمال والخلفاء لم تنجح سياستهم

لفرط بخلهم ، وحسبي الإشارة إلى عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير، فالأول قد فصلت سياسته للمال، فرأينا كيف كانت عواقب هذه السياسة ، والثانى لم تنجح سياسته لأسباب كثيرة ، من جملتها بخله الشديد ، يكره العرب البخل والإسراف من قبل العمال والأمراء والخلفاء ، فالعاقل من كان بصيراً بمعرفة فى سياسة العرب ، وهشام بن عبد الملك كان نصيبه من هذه المعرفة النفسية غير قليل ، وضع مال المسلمين فى مواضعه ، كان يمنع فى وقت المنع ، ويعطى فى زمن العطاء ، فيحفظ بهذه السياسة الحكيمة بيت مال المسلمين ، لم يبخل ولم يبذر ، ولهذه العلة ، ولعلل أخرى كان الناس معه فى دعة وسكون وراحة ، إنا نعرف كيف ينقم الشعب على حكومة تبذر أمواله وتصرفها فى غير وجوهها ، ونعرف كيف ينقم على حكومة تخزن الأموال ولا تصرفها فى سبيل شىء من الإصلاح ، فهشام بن عبد الملك فطر على محاسن كثيرة ، فى رأسها معرفته بتأثير المال فى النفوس، و إتقانه لسياسة المال فى الرعية ، فأحسن القيام عليه ، فأرضى بهذا الإحسان الرعية عامة ، ولم يظفر بهذا الرضا إلا لاهتدائه إلى أسرار السياسة النفسية .

خاتمة القول

هذا آخر ما أحببت الإشارة إليه فى كلامى على العناصر النفسية فى سياسة العرب ، ولم أستقص فى تأريخ العرب عامة ، وإنما استخرجت نماذج السياسات النفسية التى ذكرتها فى هذا الكتاب من تأريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وعمالهم ، ولو اتسع المجال لاستنباط نماذج ثانية من تأريخ بني العباس لفعلت، على أن هذا القليل الذى أثبته قد دلنا الدلالة الواضحة على أن كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم قرنوا سياستهم بعلم النفس ، فالسياسة وعلم النفس متلازمان ، وكل سياسة منحرفة عن علم النفس إنما هى سياسة فاسدة . ولقد أحس بعض كتاب العرب المتقدمين بهذا الأمر فوضعوا الكتب فى هذا الباب، وقد طالعت كتاباً صغيراً اسمه : سلوك المالك فى تدبير الممالك ، لصاحبه شهاب الدين بن أبى ربيع ، ألفه للخليفة المعتصم .

بنى ابن أبى ربيع كتابه على أربعة فصول : فصل فى المقدمة وثلاثة فصول فى أحكام الأخلاق وأقسامها وفى أصناف السيرة العقلية وانتظامها وفى أقسام السياسات وأحكامها .

عنوان الكتاب يدل على موضوعاته ، فهو عبارة عن جملة قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس .

من هذه القواعد مايلى : سأل الاسكندر حكيما : من يصلح للملك؟ فقال له : إما ملك حكيم ! أو ملك ملتمس للحكمة، والحكمة فى هذا المقام معناها الفلسفة .

ومن جملتها : وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات .

إلا أن التربة الخصبة التى نبت فيها هذا الرأى، قرن السياسة بعلم النفس إنما هى تربة المدينة الفاضلة لأفلطون ، وإذا كانت دساتير الأمم فى عصرنا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين ، فأصبح للأمم مجالس نواب ومجالس شيوخ وغير ذلك فإن شيئاً واحداً

لم يتغير ، وهو بناء السياسة على علم النفس ، فالسياسة الحكيمة هى التى تتصل بمعرفة النفوس والأخلاق

ومن كتاب هذا العصر « موروا » وله كتاب اسمه : فن الحياة ، أو أحد فنون الحياة ، من فصول هذا الكتاب : فصل فن الحكم ، فقد تكلم فيه المؤلف على أخلاق الرؤساء الذين يسوسون أمور الناس ، فالرئيس الكبير فى نظره هو صاحب الخلق الكبير ، الرئيس الكبير هو الرئيس المتجرد ، وقد ذكر رؤساء لم يكونوا من أصحاب الذهن والعقل ، ولكنهم كانوا لا يشك أحد فى نزاهتهم ، فقد تخلى بعضهم للدولة عن قسم من ماله ، وكان بعضهم لا يرضى بأن يسخر أحداً من الموظفين فى وزارته فى شغله الخاص ، فكل قوتهم صادرة عن هذه الفضيلة الابتدائية ، وهى النزاهة .

فنحن نرى أن المؤلفين لا يبحثون عن السياسة إلا بحثوا عن الأخلاق وعن علم النفس ؛ فالسياسة أخت علم النفس وأخت الأخلاق ، على خلاف ما هو شائع من أن السياسة لا خلق لها ، فإن السياسة التى لا خلق لها إنما هى سياسة لا تلبث أن تتلاشى

كما يتلاشى الدخان فى الفضاء ، وما نجحت سياسة بعض رجال العرب فى الماضى ، مثل الذين أثبت على ذكرهم ، إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم ، وكانوا زيادة على ذلك عالمين بأسرار النفوس واقفين على حقائق الطبائع ، مطلعين على خفايا الأمزجة .

فإذا تجرد رجال السياسة من الأخلاق ومن معرفة نفوس الناس ضاعت سياستهم وضاع الناس وضاعت البلاد فى وقت واحد !